الباب الأول

الحرف والصناعات المرتبطة بالدولة

الفصل الأول: الحرف والصناعات المخزنية

الفصل الثاني: الحرف والصناعات الوقفية

امتلكت الدولة في العصرين المريني والوطاسي مرافق صناعية أهمها دار الصناعة التي أنتجت الأسلحة، ودار السكة التي ضُربت بها النقود ودار الطراز التي نُسجت فيها الأثواب. وتحكمت الدولة في آليات ومواد الإنتاج الصناعي سواء داخل تلك المرافق أو في بعض المنشآت التابعة لها، وحظيت أنشطة البناء والتعمير باهتمام السلاطين أيضا، إلى جانب بعض الأشغال العلمية والفنية.

وحرص سلاطين الدولة على إنشاء المعالم الوقفية محبسين عليها الممتلكات للإنفاق على أعمال البناء والتجهيز والإصلاح بها، والعناية بالقائمين عليها ، وكانت الوظائف والخدمات المقدمة بتلك المعالم هي ممارسة الشعائر الدينية في المساجد وتلقين العلوم الشرعية بالمدارس وتطبيب المرضى واستضافة الغرباء والزوار بالمارستانات والزوايا،وأسندت مهمة الإشراف على ذلك للنظار الذين عينهم السلاطين.

ويمكن التمييز في الحرف والصنائع التابعة للدولة بين نوعين ارتبط الأول منهما بالمخزن[1] و الثاني بالأوقاف.

---

(١) تم ذكر مصطلح المخزن في عدة مصادر تاريخية منها : محمد بن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص: ٢٨٣.

محمد بن عبد العظيم الأزموري، أبو عبد الله: بهجة الناظرين وأنس العارفين ووسيلة رب العالمين في مناقب رجال أمغار الصالحين، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، رقم ٨٩٦ج، ١٤٢صفحة، نسخ أحمد بن علال الذويبي اللطيفي عام ١٣٠٠هـ، ص: ١٢.

الفصل الأول

الحرف والصنائع المخزنية

المبحث الأول: الصنائع العسكرية

المبحث الثاني: سك النقود

المبحث الثالث: الأشغال العامة والأعمال العلمية والفنية

نشط هذا الصنف من الحرف والصناعات بحاضرة السلطان في فاس الجديد وخارجه،

فصناعة الأسلحة والأدوات الحربية باعتبارها مقوما من مقومات الدولة، اعتنى بها السلاطين خصوصا في مراحل ازدهار واستقرار الأوضاع السياسية، حيث ابتُكرت وجُددت التقنيات وارتفع حجم الإنتاج وأُنشئت المباني العسكرية في فاس الجديد بصفة خاصة، كي تكون درعا واقيا من الهجومات المحتملة عليه.

واعتبارا للدور المالي والاقتصادي للسكة، سارع بنو مرين إلى نقل صناعتها من فاس القديم إلى فاس الجديد بعد تأسيسه سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م، كي تسهل مراقبة نشاطها وتتَّبع الأعمال بها، تفاديا لما يمكن أن تعرفه من غش وتدليس.

ونظرا لكثرة متطلبات الدولة وحاجيات المجتمع الذي يرعاه سلاطينها، تم تبني أعمال صناعية وحرفية أفادت في تجهيز المجال داخل المدينة وحولها، فمُدَّت الطرق والشوارع والقنوات المائية وصُنعت الناعورات التي زودت الناس والحدائق بالماء وبُنيت القناطر والجسور والسقايات. كما احتضنت دار الطراز صناعة منسوجات فاخرة، ورعى المخزن كذلك أعمالا علمية وفنية مثل تخطيط وجمع وتسفير المصاحف والكتب وإنشاء نموذج مصغر لجبل الفتح بالقصر السلطاني.

وكانت الحرف والصناعات المخزنية تتنوع وتنشط وتزدهر في فترات استقرار الدولة.

المبحث الأول

الصناعات العسكرية

تكتسي الصناعات العسكرية أو الحربية أهمية لكونها وسيلة أساسية في الحفاظ على كيان الدولة واستقرارها. لقد أنتجت المؤسسات الصناعية المخزنية الأسلحة والأزياء والآلات الموسيقية الحربية لفرق الجيش المريني لمُواجهة قوى معادية محلية وأجنبية، ولتَقَلُّدها أثناء استعراضاتها واحتفالاتها المنظمة تحت إشراف السلاطين الذين أرسل بعضهم نماذج من تلك المصنوعات الحربية هدايا إلى نظرائهم بالبلدان الخارجية تعبيرا عن العظمة والافتخار أحيانا، وإبراما لصفقات معهم أحيانا أخرى.

واستعمل سلاطين بني مرين وبني وطاس كسابقيهم البناء والتعمير وسيلة للدفاع عن مدنهم خاصة حاضرة فاس الجديد التي أحاطوها بالأسوار والأبراج والأبواب وبنوا داخلها القصور المنيعة الضخمة، إلى غير ذلك من البنايات المُحصنة التي يأوون داخلها عندما تحاصرهم قوات الخصوم، ولم تكن لتشغلهم هذه الأعمال المعمارية عن تحصين المدينة العتيقة توخِّياً لاستقرار رعيَّتهم بها ومزاولتها لعدة أنشطة.

تعددت الجماعات التي خدمت الدولتين المرينية والوطاسية عسكريا، فتكونت من فرق مغربية قامت بمهام تطوعية، وهي الفرق البربرية والعربية الموالية لسياسة الدولة، ومن الفرق الأجنبية التي مثل المسيحيون أهمها إلى جانب الأغزاز -القادمين من بلاد الشام لخدمة الدولة المغربية عسكريا- الذين قاموا بالخدمة العسكرية المأجورة للدولة، أو المجانية أحيانا بالنسبة للأسرى المسيحيين.

والجماعات المذكورة آنفا سواء المحلية أو الأجنبية حملت الأسلحة والأدوات الحربية الأخرى في المعارك والحروب التي قادها سلاطين الدولة، بل إن منها من اشتغل في الصناعة العسكرية فكان لها الفضل أحيانا في صنع أنواع مركبة من الآلات الحربية. وقد حشرت العناصر الأندلسية والعربية بما فيها المغربية أيضا في تصنيع الأدوات والآلات الحربية ، حيث كان السلاطين يبحثون عن الأشخاص الذين يستفيدون من خبراتهم في صناعة بعض أنواع السلاح خصوصا في فترات الاستقرار والانتعاش، كي يمكنهم مواجهة تحديات المواجهات العسكرية التي تمت بحدة أكبر في الجبهتين الشرقية والأندلسية.

المطلب الأول

صناعة الأسلحة

ورد عند ابن خلدون في مقدمته أن الصناعات الحربية مرتبطة بالسياسة تتطور باستعمال الأفكار، وتدخل في الكماليات التي لا تصلها الدول إلا بعد انتعاشها وازدهارها[١]. وينطبق ذلك القول على دولة المرينيين التي خدمها ابن خلدون في إحدى فتراتها، فبعد إسقاط دولة الموحدين بدخول بني مرين مراكش سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠ م واستقرار الأوضاع العامة وما تبع ذلك من بناء فاس الجديد سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م، اهتم حكام الدولة بصناعة الأسلحة المركبة التي ابتدئ استعمالها في المعارك والحروب في صدر العصر المريني على عهد يعقوب المنصور بن عبد الحق وابنه يوسف وبشكل أفضل في فترات أعقابهم- خاصة أبي الحسن وأبي عنان-. فقد استعملت من قبل هؤلاء المجانيق والعرادات والأقواس الكبيرة إضافة إلى الأسلحة النارية[٢] المتطورة في تقنياتها.

وموازاة مع ذلك فوض المخزن المريني صناعة الأسلحة البسيطة كالسيوف والرماح والسهام وزينة الخيول لصناع وحرفيين خاصين باشروا أعمالهم بأحياء المدينة العتيقة، لكن ذلك لا يعني أن مصانع الدولة لم تقم بهذه الأعمال حيث كانت تتم فيها صناعة بعض الأنواع منها بكميات محددة حسب الحاجة إليها من مقابض

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن : المقدمة، دار القلم، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص ص: ٤٠٠-٤٠١.

(٢) صنع بنو مرين البنادق والمدافع والأنفاض التي ترمي مواد نارية محترقة ومشتعلة مثل البارود وحبات الرصاص والحديد، سيتم التفصيل في ذلك لاحقا.

السيوف والخناجر المُعَدة من مادة العاج بكميات مهمة على سبيل المثال[١]، وهذه الصناعة تستدعي صناعة أنصال تلك السيوف والخناجر وغيرها.

ويتضح مما سبق دور العنصر الأجنبي وخاصة الأندلسي في التحول الذي عرفته صناعة الأسلحة من طرف الدولة المرينية[٢]، بالإشراف على تأطير العناصر المحلية في الأعمال التي قدمت مصنوعات مختلفة اعتمد عليها الجيش المريني في الدفاع عن سيادة وهيبة الدولة.

- **المجانيق والعرادات:** المجانيق جمع منجانيق: وهي آلات حربية مُكَوّنة من هيكل كبير ذو دعامتين خشبيتين وصندوق خشبي أيضا توضع فيه المقذوفات قبل سحبها لترمى منه على المدينة المحاصرة.[٣] وتستخدم في الهجوم على المدن ومحاصرتها وفي تهديم الأسوار والحصون وإرهاب العدو وذلك بقذفها لموادّ ثقيلة كالأحجار وما شابهها. وللعرادت دور متكامل معها، بل هناك من ذهب إلى أن المنجانيق آلة تعني العَرَّادة ولا يعدو أن يكون الاختلاف بينهما في الإسم فقط. لكن الراجح، أن للعرادات وظيفة مشتركة ومكملة للمجانيق، وكثيرا ما ذُكِرت الآلتين بعطف الثانية عن الأولى[٤]. مما يوحي بالتشابه بينهما.

---

(١) المنوني، محمد: ورقات عن حضارة المرينيين، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٠، ١٩٩٦، ص: ٣١.

(٢)- نذكر من الصناع الأندلسيين للسلاح المريني محمد بن علي بن الحاج الإشبيلي (ت ٧١٤هـ)، الرجوع إلى ابن القاضي، المكناسي أحمد: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر والوراقة، الرباط، ١٩٧٤؛ نفسه: ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، نشر دار التراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس، رقم ٧ من سلسلة تراثنا الإسلامي، دون تاريخ، ج١،ص ص:١٨٨

(٣) Massignon, Louis : Le Maroc dans les premières années du 16ème siècle, Alger, 1906, p. 227.

(٤) نورد مثلا : ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق : أحمد مختار

لقد اعتمد الجيش المريني على المجانيق في عدة معارك في الفترات الأولى من الحكم، حيث قذف بها أبو يوسف يعقوب مدينة سجلماسة في معركتين منفصلتين آخرهما تلك التي تمت ضد يغمراسن بن زيان بعد أن استولى على المدينة، كما استخدمها أيضا أبو يعقوب يوسف وأبو الحسن علي وغيرهما في الهجوم على مدن سجلماسة وتلمسان، وقد أشارت الكتابات التاريخية إلى استدعاء السلاطين للصناع والأيدي والفعلة لصناعة هذه الآلة الحربية[1].

ورغم صعوبة تحديد طبيعة المواد والتقنيات المستخدمة في صناعة المجانيق فإنّ بعض الدراسات والأبحاث تشير إلى أن مادة الخشب مثّلت إلى جانب الحبال والشرائط أهم مواد صنع الآلة المذكورة، التي أصبحت بعد نهاية القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي متطورة بحيث كانت تقذف أشياء ثقيلة وكبيرة الحجم يُقَدّر وزنها بمئات الكيلوغرامات[2].

ولم تشر المصادر أيضا إلى الجهة التي صنعت المجانيق المرينية الثقيلة، لكن قد يكون للصناع والخبراء من الجنود المجلوبين من حمص ببلاد الشام يد في ذلك ، وكانوا قد خدموا دولة بني مرين عسكريا في فترات من القرنين ٧و٨هـ/ ١٣

عبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، دون تاريخ. ص: ٢٣٢؛ الناصري، أحمد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤، ج٣، ص: ٣٦.

(١) الناصري: المرجع السابق، ج٣، ص ص: ٣٦، ١٢٧، ١٢٠، ١٦٩؛ علي، حسن إبراهيم: السلطان أبو الحسن علي المريني، دار الثقافة، الدار البيضاء، سلسلة خالدون في تاريخ المغرب- ٥- ص ٧٦: الشابي، مصطفى: السلاح الناري بالمغرب، معلمة المغرب، م١٢، ص: ٥٠٦٦.

(٢) Massignon, Louis :Le Maroc p. 227

و١٤م[١]، خاصة وأن مدينة حمص التي تعد موطنا أصليا لهم تعرضت بدورها لهجوم بواسطة هذا النوع من المجانيق، وهو ما يرجح توصلهم لصنعها ثم نقل تقنيات ذلك الصنع إلى المغرب، والإشارة واضحة إلى استعمال بني مرين لها في قذف مدينة تلمسان بالحجارة الثقيلة[٢].

- **البنادق والمدافع**: البنادق جمع لبندقية والمدافع جمع لمدفع، وقد عرفت صناعة البنادق تطورا مسترسلاً إلى أن أصبحت مدافعَ جعلت المؤرخين ينعتونها في أحيان كثيرة بالمدافع، وفي بعض الحالات «المكحلات»[٣].

ويدخل هذا النوع من السلاح ضمن الأسلحة النارية التي تطورت صناعتها عند بني مرين. وهو أداة لقذف مواد مشتعلة كالبارود والذخيرة ثم تطورت إلى رمي مواد أكثر فعالية، لذلك اختلفت المواد المقذوفة أو المرمية من حيث النوع والحجم، ومن الأنواع المتطورة في الرمي الرصاص وحبات الحديد التي يكبر حجمها كلما كبرت فوهات البنادق التي تخرج منها تصنع لها بمقاييس وتقنيات دقيقة.

لقد نُعتت البنادق المرينية بالقصر[٤] واعتمدت صناعتها على مواد خشبية وأنواع من المعادن. والواضح أن صناعة البنادق والمدافع انتعشت في عصر الاستقرار والازدهار الذي واكبه ظهور صناعة الأسلحة النارية، اعتمد فيها بنو مرين على

---

(١) p 227 ibid

حركات إبراهيم: الحياة الاقتصادية في العصر المريني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، العدد ٣-٤، ١٩٧٨، ص: ١٣١.

(٢) هيل، دونالد، ر: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا، مجلة عالم المعرفة، ع٣٠٥، ٢٠٠٤، الكويت، ص: ١٦٠

(٣)- ابن الأحمر، إسماعيل وآخرون، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، ص: ٢٤.

(٤) الشابي، مصطفى: السلاح الناري بالمغرب، معلمة المغرب، م١٢، ص: ٥٠٦٦.

الخبرات المحلية والأجنبية وخاصة العناصر المسيحية والأندلسية. لكن البنادق والمدافع المرينية لم تستعمل على نطاق واسع ولم تصل مثل ما سيصبح عليه الأمر عند السعديين[١].

إن المصانع المخزنية وخاصة دار الصناعة بفاس الجديد احتضنت عمليات صناعة أسلحة من بينها البنادق[٢] أشار ماسينيون إلى وجودها بمكان من ربض النصارى شرق القصرالسلطاني[٣]، ووجودها هناك تبرره السرية والأهمية التي تكتسيها مصنوعاتها.

ورغم ذلك كان للصناع الخواص دور في تزويد الدولة بكميات من هذه الأسلحة، فالإشارة واضحة إلى صنع سرير المكحلة وزنادها في المدينة العتيقة، والزّناد هو الجزء المهم الذي تشتعل النار به، وقد أشار الأستاذ زمامة إلى صناعة سرير المكحلة[٤] أو هيكلها دون أن يذكر شيء عن صناعة زنادها أو نيرها. وحي النيارين هو المؤهل لهذه الصناعة لازال قائما وسط مدينة فاس في جهة باب السلسلة.

- **الأنفاض:** وتسمى أيضا «الأنفاظ» ثم حُرِّفت إلى العامية لتُنعَت بـ«الأنفاط»، وهي سلاح ناريٌّ متطوّر عن المدافع يَرمي موادَّ مشتعلة ذات فاعلية.

---

(١) نفسه.

(٢) مارمول، كربخال: إفريقيا، ترجمة مجموعة من الأساتذة، دار المعرفة، الرباط ١٤٠٨-١٤٠٩م/١٩٨٨-١٩٨٩م. ج٢، ص:١٥٧.

(٣) Massignon : Le Maroc, p. 227.

(٤) ابن الأحمر وآخرون: ت بيوتا 24ص ؛ زمامة عبد القادر: أسماء الحرف المعروفة بفاس، مجلة اللسان العربي، ع٤، ربيع الثاني ١٣٨٦، غشت ١٩٦٦، المكتب الدائم لتنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية، الرباط:99. ص

فقد تحدث ابن خلدون عن استعمال بني مرين لآلة حربية سماها «هندامُ النّفط القاذف لحَصَى الحديد المنبعث من خزانةٍ أمام النار الموقدة في البارود»[١]، يرمي المقذوفات النارية ذاكراً أن ذلك حدَث في فترة مرينية مبكّرة حين حاصَر يعقوب بن عبد الحق يغمراسن بن زيان في سجلماسة.

ومن الثابت أن المرينيين نقلوا صناعة الأنفاض عن الأندلسيين الذين كانوا قد توصلوا إلى صنعها في فترةِ سيطرةِ الموحدين على القسم الإسلامي من شبه الجزيرة الإيبيرية،[٢] ثم أدخلوا عليها إضافات وتحسينات لفَتَت أنظارَ بني مرين حين قيامهم بمعاركَ مشتركة ضد النصارى في الأندلس، فقد كانت الأنفاض الأندلسية في تلك المعارك تُحدِث أصواتا عند القذف تحاكي الصواعق، وترمي بِكُرات حديدية كبيرة[٣] تُمكّن من هَدْم الحصون والأسوار وهزم العدو، ولعلّ بني مرين استفادوا من هذه التقنيات واتّبعوها في صناعة أنفاضهم[٤] فحاولوا بواسطتها الإعداد للانتقام من هزيمتهم بالأندلس سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤١م في معركة طريف.

يشير الكلام السابق إلى مواد صناعة الأنفاض المعدنية وخاصة الحديد، وإلى تقنيات عملها بسحب الحبال العالقة بها، وثقلِ المقذوفات ونوعيتها، إضافة إلى رميها مسافة بعيدة، وهذا دليل على دقّة وجودة صناعة هذه الآلة الحربية.

---

(١) الناصري: الاستقصا، ج٣، ص: ٣٦.

(٢) بوطالب، عبد الهادي: وزير غرناطة لسان الدين بن الخطيب، دار الكتاب، الدار البيضاء ١٩٨٠، ص: ٥٣.

(٣) ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ص: ٨٥.

(٤) قال بعض الباحثين بهذا الرأي منهم محمد الفاسي وعبد الله عنان، الرجوع إلى الحريري، عيسى: تاريخ المغرب والأندلس في العهد المريني، ص: ٢٨٦.

- **الذخيـرة:** هي مقذوفات الأسلحة النارية، ذات أنواع متعددة من بارودٍ وحصى الحديد وحبّاته وكُراته، ويُعبَّر عنها أحيانا بالرصاص، لذلك كان معدنا الحديد والرصاص أساسيان في صنع الذخيرة مع مواد معدنية وكيماوية أخرى، كان للكيميائيين دور في تصنيع هذه المواد وتحويلها إلى أدوات حربية.

ورغم الحديث عن توصل أحد الحكماء إلى صناعة البارود باشتقاقه من الرصاص بالطرق الكيميائية سنة ٧٦٨هـ[١]/١٣٦٨م، فإن الكلام السابق عن استعمال يعقوب بن عبد الحق لسلاح «النفض» القاذف للنار يعد دليلا على صناعة المخزن المريني للذخيرة في فترة السلطان المذكور على الأقل[٢].

وقد كانت مادة الذخيرة رائجة في أسواق فاس لدرجة أن الفقهاء جوَّزُوا تقديم الزكاة من الرصاص[٣]، إلا أن ذلك لا ينفي الطابع المخزني عن صناعتها، حيث يُرجّح أن الدولة كانت تصنع البارود والرصاص وتسمح بتسويق كميات منها قصد استعمالها في أغراض غير عسكرية مثل الصيد والفروسية.

- **قوس الزِّيـار:** هي آلة حربية مركبة، واسمها يدلّ على الشدِّ والحزم بقوة تمكِّن من تشغيلها بفعالية، كما أن شكلها مقوَّس يساعد على قذف أشياء ثقيلة الوزن وكبيرة الحجم.

---

(١) الفاسي، محمد بن عبد القادر: شرح منظومة العمل الفاسي، في مجموع رقم ١٤٤٧ د، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، ص: ١٠٥-١٠٦.

(٢) المقصود استعمال يعقوب المنصور لهندام النفط ورميه لحبات الحديد والبارود، العودة إلى الناصري: الاستقصا، ج٣، ص:٣٦.

(٣) الفاسي، محمد بن عبد القادر : المصدر السابق، ص: ١٠٥-١٠٦.

فقد تمكّن مهندسون وصناع عسكريون من الغُز المُستقرُّون بفاس الجديد[١] من اختراع وصنع هذه الآلة الحربية ليُقدِّموها إلى السلطان أبي يوسف يعقوب سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م فأُعجِب بها واستعملها في حِصَاره لتلمسانَ. ولكِبَرِ هيكلها ورميها لأشياء ثقيلة الحجم على مدى بعيد، تطلّبت عمليةُ نقلها حملَها فوق ظهور أحدَ عشَر بغلا[٢]. وهو مؤشر على أنّ صنعَها كان مُتنوِّعَ الموادِّ، دقيقَ التقنيات ذا فاعلِيّة في القذف أثناء المعارك.

ورغم قلّة المعلومات عن المواد التي يُمكن أن يُحوّل منها هذا النوع من السلاح وطريقة صناعته، غير أنّ الكلام الوارد آنفا يوضح أنه يتكون من عدة أطراف تُركَّب في ميدان المعركة، ولعلّ الخشب والحبال والقليل من المعادن مثّلت أهم مكوناته، وطريقة الحزْم والجرّ بالحبال التي تلقي المقذوفات هي المعتمدة في تشغيله،كما أن اسمه يوحي بأن شكلَه مُقوّس تُميّزه قوّة قذف المواد نتيجة الضغط الذي تُسخّر فيه الحبال.

- صناعة السفن: شهِدت مدينة فاسَ صناعة سفن ذات حجم صغير كانت تدعم الأسطول البحري، وأشارت بعض الأبحاث إلى أن هذه الصناعة الحربية قامت بالمدينة المذكورة منذ العصر الموحدي؛ حيث أُنشِئت بها دار للصناعة في عهد عبد المومن بن علي الكومي ليستمر العمل بها حتى العصر المريني، وتم تحديد مكانها بمنزل خولان في الملتقى بين وادي فاس ووادي سبو[٣]. وقد استفاد هذا الموقع من

---

(١) Massignon L : Le Maroc dans les 1ères années du 16ème siècle pp : 174-175.

(٢) الناصري: المرجع السابق، ج٣، ص: ٧٦.

(٣)- السلامي رشيد وفتحة محمد: دار الصناعة بفاس، معلمة المغرب، م١٢، ص: ٣٩٢٧؛ الجريري، عيسى: تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص: ٢٨٧.

القرب من مصادر الأخشاب والتواجد على ضفة مجرى مائي يمُكِّن من نقل السفن المصنوعة عبرَه في اتجاه الساحل الأطلنتي.

اتّسمت السفن المرينية المصنوعة بفاس بالصغر، وهي من نوعَيْ «شيطي»و«شلير»[1] اللذين كانا يدعمان الأسطول الحربي في عهد أبي عنان، ويعدان من الألواح الخشبية التي يتم تركيبها وبناؤها بطرق وتقنيات من قبل المختصين في صناعتها ، وحين الفراغ من إنشائها يتم وضعها في مياه سبو لتنتقل عبرها إلى المعمورة التي كانت مركزاً متميزاً في بناء السفن آنئذ[2]. ويبدو أن دار صناعة السفن بفاس كانت تزوِّدها أيضا بألواح الخشب المهيأة .

- صناعات أخرى: أشرفت السلطة المرينية على صنع آلات وأدوات حربية أخرى مثل الدبابات التي أشار ابن الخطيب إلى اعتمادها من طرف المرينيين عسكريا[3]، كانت تُنقل بواسطتها العدة والعتاد ،والعجلات الخشبية تمثل الجزء الأهم فيها، ، يدعِّم ذلك استخدام العجلات بفاس آنئذ، ويبدو أن الطاقة البشرية وطاقة الدواب حرَّكتها،إلا أن استعمالها قليل إذا ما قورن بالدواب التي مثَّلت الوسيلة الرئيسية في الحمل والنقل.

كما استعمل الجيش المريني آلات لتسوية الطريق وإزالة ما اعترض فيها من البناء، وهي آلات وردت على لسان السلطان أبو عمر تاشفين (٧٦٢هـ-٧٦٣هـ) في رسالته التي بعث بها إلى أهل سلا يخبرهم فيها عن انتصاره في معركة أجراها حول

---

(١)- الحريري: المرجع السابق، نفس الصفحة؛ الشريف، محمد: الأسطول السبتي بين الجهاد والتجارة (ق ١٢- ١٤م)، مجلة البحث العلمي، ع ٤٥، ١٩٩٨م.

(٢) الحريري: تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٨٧.

(٣) ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ص: ٢٣٢.

فاس الجديد، وقد أفادت هذه الآلات-أثناء المعارك- في تجاوزالجيش للخنادق المحفورة وحواجز الأسوار المبنية، وهو دليل على التركيب في تقنيات صناعتها. ورغم ما يلفُّ نسبة صناعة هذه الآلات إلى المرينيين، فإن صاحب الرسالة ذكر أنه استفاد مما كان من ذخائر في خزائن أسلافه بفاس .

تلك أهم المصنوعات الحربية المرينية المركبة التي صُنعت بمرافق تابعة للدولة، تراكمت فيها الخبرات والتجارب السابقة كالموحدية أو المعاصرة كالأندلسية النصرية والأوربية، وهو ما ساهم في تقديم منتوج حربي يستجيب لحاجيات الجيش العسكرية في بلاد المغرب الكبير وبلاد الأندلس خاصة أثناء معاركهم مع الأوربيين.

إن أهم إضافة مرينية لصناعة الأسلحة المغربية هي ابتكار أنواع منها النارية سايرت -إلى حد ما- التطور الأوربي والأندلسي.

لقد كان العصر المريني الأول الممتد من عهد يعقوب بن عبد الحق إلى وفاة أبي عنان سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٦٠م، هو الفترة المناسبة لتحسن صناعة الأسلحة المركبة على مستوى النوع والكم، لكن بعد ذلك التاريخ سيتوقف هذا التحسن، حيث طبع التراجع والتقليد ما تبقى من العصر المريني والعصر الوطاسي اعتبارا للاضطراب وعدم الاستقرار السائدين فيهما، مما لم يهيء الظروف المساعدة للقيام بمشاريع جديدة لتطوير صناعة الأسلحة، وذلك ما جعل سلاطين الدولة يعتمدون على ما في خزائنهم من أسلحة، أو اقتناء ما يحتاجونه منها من المنتجين المحليين أو الأجانب، فتراجعت قوة جيشهم التي أصبحت تصارع بقاء واستمرار الدولة مولية الأدبار عن الجبهتين الأندلسية والشرقية اللتين مثلتا مجال الاحتكاك المريني بالقوى الأجنبية.

المطلب الثاني

الأزياء والموسيقى العسكرية

ميز التظاهرات ذات الصبغة العسكرية المتمثلة أساسا في المعارك والاستعراضات اتخاذ أنواع من الأزياء ازدان بلباسها العسكر المريني، واستعملت في تلك التظاهرات بعض الآلات الموسيقية تم بها التعبير عن مظاهر الاستعداد للمعارك أوالاحتفال بالانتصار فيها. وحاول بنو مرين من خلال صناعة الأزياء والآلات الموسيقية إبراز عظمة دولتهم بقوة جيشهم وإحكام تنظيمه ورونقه.

وقد مثلت دار الطراز مكانا لصناعة جل الأزياء التي تزين بأفخرها ملوك الدولة وقواد الفرق الحربية، في حين كان لباس عامة الجند موحدا وبسيطا يتمثل في اتخاذ العناصر المحلية العمائم البيضاء المسدولة، أما لباس العناصر الأجنبية فكان عبارة عن أزياء غالبا ما كانت تنتج ببلدانهم.

وتمثلت الأزياء الأخرى المستعملة في الحملات الحربية المرينية في الخيام والأخبية والهوادج وغيرها، تظافرت جهود الصناع في عملها بالمرافق المخزنية المتوفرة على إمكانيات في المواد والتقنيات ، حيث تطلبت الإتقان والإبداع اعتبارا لارتباطها بالسلطان وحاشيته ومساعديه.

كما استعمل الجيش المريني الآلات الموسيقية الحربية بشكل محدود، ويرجع ذلك إلى الخصوصية الإسلامية لهذه الدولة مثل باقي دول المغرب والمشرق، حيث ضُربت الطبول سيرا على ما استعمل لدى المسلمين السابقين منذ عصر الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم، كما نُفخت المزامير التي مثلت مظهرا من مظاهر التأثير الأجنبي، لكن كمياتها المصنوعة قليلة -إن كانت فعلا قد صنعت-.

- **أفْـرَاق**: هو زي عسكري يدعى أيضا أفراكْ، وقد اختلف الدارسون في ضبط أصل هذه الكلمة، فأرجعها بعضهم إلى أصل عربي حيث كانت تفرق بين السلطان والجيش[١] المرافق له ،وحملها البعض الآخر دلالة أخرى هي أنها تمثل حاجزا أو سياجا وأصلها مشتق من الأصل البربري[٢]، ويجتمع الطرحان حول اختصاص هذه الحُلَّة العسكرية بالسلطان وحاشيته، وقد كونتها عدة خيام مصنوعة هياكلها من الخشب تغطيها المنسوجات، وتُربَط كل خيمة بالحبال التي تكون مثبتة بالأوتاد المنغرسة في الأرض.

وساهم صناع مُتعدِّدو التخصصات في إنشاء هذه الخيام، فمنهم من يُعِدُّ الخشب ومنهم من يزخرفه، ومنهم من ينسج الأثواب الخاصة بها ويطرزها، ثم تتم خياطتها وزخرفتها فضلا عن تهيئ أنواع وأشكال متعددة من الحبال.

وتطلبت أفراق السلطان ومساعديه أيضا مجهودات في نصبها وعمليات جمعها وحملها، وتم ذلك من قِبل فرق متخصصة مهمتها القيام بهذه الأعمال إلى جانب حراسة الخيام وفساطيطها والمقيمين بها[٣].

وقد استعمل ملوك الدولة الموحدية الفساطيط[٤]" وتبعهم في ذلك ملوك الدولة المرينية نعتت في عهدهم بـ: أفْرَاك التي تكونت من العديد من الفساطيط أهمها فسطاط السلطان وقبابه. حيث نصبها يعقوب بن عبد الحق إلى جانب السور حين

---

(١) الأنصاري، السبتي: محمد بن القاسم : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ص: ٣٥.

(٢) الكير، محمد: أفراك، معلمة المغرب، م٢، ص: ٥٤٦.

(٣) نفسه، ص: ٥٤٧.

(٤) الناصري: الاستقصا، ج٣، ص: ١٨.

حصاره لتلمسان سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م، تلته عملية تفريق الفساطيط من طرف السلطان المذكور على قومه حين فكه الحصار عن تلك المدينة[١]، مما يفيد بأن صناعة هذه الفساطيط بكميات كبرى كان أمرا عاديا. ومدينة فاس باعتبارها مقرا للسلطان وأجهزة الدولة مؤهلة لاحتضان هذه الصنعة.

وقد تحسَّنت صناعة خيام وفساطيط وقباب الأفراق في فترتي أبي الحسن وأبي عنان، إذ وصفت أفراق الأول بأنها كانت ذات أبواب أربعة، وهي بمثابة مدينة متنقلة نظرا لما تحتويه من مرافق وما تحتضنه من أنشطة[٢]. كما كانت هدايا السلطان المذكور، تحتوي على قباب تشبه تلك المستعملة في حملاته العسكرية جيدة الصنع مبطنة بحُلَّة مذهبة من حرير أبيض مثل التي بعث بها مع والدته -التي كانت لها عليه تربية- برسم حجها[٣].

لقد تحدث النميري بإسهاب عن أفراق مخدومه أبي عنان قائلا : «وأفراق السعيد كالبلد الواسع الأقطار، القائم الأسوار، البديع الاختطاط، الشريف الاستنباط، المحكم الارتباط، وهو في وضعه مستدير الساحة بدري المساحة قد صنع من شقاق الكتان الموضونة، وأظهر النصاحيون[٤] في خياطته... وأعملوا فيه نبات الوخز... ترسل خيوطها أسرع من البريق». ويستخلص من خلال ذلك أن الأفراق ذو شكل دائري مساحته كبيرة، تميزت تقنيات صناعته بالإبداع في أعمال النساجين والخياطين وغيرهم. وأضاف النميري واصفا الأفراق المذكور أيضا «وجمع شرائطه

---

(١) نفسه، ص: ٣٠.

(٢) علي، حسن إبراهيم : السلطان أبو الحسن علي المريني، ص: ٩٤.

(٣) أي أنها ليست أمه بل زوجة أبيه ساهمت في تنشئته، حسب ما أورده الناصري: مرجع سابق ج٣، ص: ١٢٩.

(٤) النصاحيون هم المحترفون بالخياطة.

شرائط الكمال، واختار من لونه وهو البياض... وصنعت له عمد مثقفة كالقداح، موشاة كأثواب الرداح، بأسافلها زجاج حديد كبير الإجرام، تشق الأرض ... وتقر في التراب كأنه جذور النخل الباسقة، وعروق الأرزة... فتقف تلك العمد متناسقة الصفوف»[1]. لذلك أبدعت تخصصات حرفية أخرى في صنع أفراق أبي عنان فتم عمل الحبال والشرائط التي توثق في الأوتاد المصنوعة من الحديد، و الأعمدة المموهة التي يناسب الخشب مادة صناعتها، واللمعان الذي ميزهذا الزي ناتج عن الأدهان والأصباغ التي زينتها مثلها في ذلك مثل الألواح الخشبية التي سبقت الإشارة إلى تزيينها بمثل هذه المواد والصفات.

واحتوى أفراق السلطان على قبة كانت توجد في المركز وتحيط بها قباب أو بيوت أخرى، ونعتت المركزية منها بالبيت العظيم الذي كان السلطان يجلس وينزل به. كما ضمت الأفراق أيضا خيمة الشَّعَر وعملت لها الأخبية والخيام وغيرها. وموازاة مع الأعمال العسكرية، احتضنت الأفراق والخيام الأنشطة الاجتماعية حيث كان الحريم يرافق السلطان في حله وترحاله. وقد تكاثفت مثل هذه الأنشطة الموازية حين يكون الجيش في طريقه إلى موقع المعركة أو عند رجوعه منها، وتقل في أوقات المعارك التي يركز فيها المسؤولون الحربيون على دقة تخطيط تحركاتهم وعملياتهم.

- الهوادج: جمع هودج، وهي صناديق صنعت هياكلها من عود الخشب، غطتها الأثواب الرفيعة في واجهاتها الخارجية التي كانت أحيانا مزينة بخيوط الذهب. وقد احتوت الهوادج المرينية في أطرافها على خلاخل وحلل فضية وذهبية، وكانت أرضيتها مغطاة بالفرش، ووضعت داخلها الصناديق التي تضم حلي النساء، بل إن

(١) النميري، ابن الحاج: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة ١٩٩٠، ص: ٢٢٨.

الجمال التي كانت عادة هي الحاملة لها زُيِّنَت بحلي. وورد عند النميري أيضا وصف للهوادج المرينية في عهد أبي عنان قائلا:«قد أحكمت بالعيدان... واعتمد تركيبها على وفق اقتراح الإبداع والإتقان، وجعلت عليها أغشية من الحلل المنسوجة بالذهب... وما من جمل يحمل هودجا إلا وقد حلي بخلاخل... وهو مبدأ القطار حمل عليه العياب المحلاة بأبدع السقط، والفرش التي هي أبدع من الدرر واليواقيت في السفط»[1].

لقد تم عمل الحرفيين للهوادج وفق الطريقة التي صنعت بها الخيام، فتعددت تخصصات الصناع وتنوعت المواد المصنوعة والمحولة من خشب ونسيج ومعادن ، وأشار النميري أيضا إلى أن المنسوجات المعتمدة في هذه الصناعة توجد من ضمنها «الأندلسية والعراقية من أحسن ما نسج على منوال»[2]. مما يفيد أن تقنيات وطرق نسج هذه الأثواب كانت منقولة مما كان يتم بالبلدين المذكورين.

استعملت الهوادج في أغراض غير حربية مثل ركب الحجيج والرحلات التجارية والعلمية... لكن تحركات السلاطين التي كانت في معظمها عسكرية أضفت عليها سمة جعلت الصناع يتنافسون في الإبداع والإتقان فيها.

- **اللباس العسكري**: احتضنت المرافق الحرفية التابعة للدولة، وخاصة دار الطراز أو الديباج، عمليات صنع ملابس تليق بعظمة السلطان القائد للجيش الذي يراد له الظهور بمنظر بهي أمام الجيوش المعادية خاصة بالجبهتين الشرقية والشمالية. و دار الطراز المذكورة احتلت مكانا في محيط القصر السلطاني قد يكون في قبة السوق الحالية اعتبارا لأهمية موقعها بفاس الجديد في ذاك الوقت.

---

(١) النميري: فيض العباب، ص: ٢٣٣، وضح بأن السفط هو الصندوق التي توضع فيه الحلي.
(٢) نفسه.

وقد تحكمت الظروف والأوضاع العامة للدولة في صناعة أنواع وكميات من الملابس العسكرية، كان السلطان ورؤساء الفرق العسكرية يتحلون بأهمها.

ولم يختلف اللباس المريني العسكري كثيرا عن اللباس المدني، لكن ذلك لا يعني أن المرينيين لم يصنعوا لباسا عسكريا. فقد كان استعداد الجيش للاستعراض أو خوض معركة معينة يصحبه ارتداء السلطان للباس خاص عرف «بشارة الملك» أو «خُلعة المُلك»[1] ، وهي حلة لها دور عسكري وسياسي في آن واحد، حيث كان السلطان أبو عنان يرتدي لباسا خاصا يتكون من «ملوطة بيضاء تحمل الشواشي كتبت فيها آثار مجده وفوق الملوطة مصحف ملوكي، ومضمة شريفة على رأسه، وبيضة هندية، وعلى المصفح عقارة حمراء»[2]، لذلك يمكن القول أن ملوك الدولة كانوا يميلون إلى لباس يظهر أبهة دولتهم وعظمتها أمام الخصوم والأعداء سواء أكان ذلك أثناء عَرْضِهم للجند أم في معاركهم وحروبهم.

ودفع تعدد الفرق العسكرية المرينية قواد الجند إلى التمييز بينها بأزياء متنوعة الألوان، حتى لا يحصل الارتباك عند خوض المعارك. فقد كان رؤساء فرق المرتزقة يتخذون لباسا خاصا غالباً ما كانت تتم صناعته في البلدان التي قَدِموا منها، حيث لبس القواد الأغْزَاز منهم الطّبْخَانات في حين حمل الأندلسيون الأقبيّة ووضعوا الرّتافيل على رؤوسهم، واتخذ غيرهم الشواشي والقلانس المُزينة بخيوط مذهبة[3]. أما الفرق المغربية المحلية فعادة ما كان جنودها يلبسون العمائم الطويلة البيضاء

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن : العبر ج٧، ص: ٣٧٠. ؛ ابن الخطيب، لسان الدين : اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية، ص: ١٣٦ ، وكلاهما تحدث عن فترة أبي سالم المريني.

(٢) النميري: فيض العباب، مقدمة المحقق، ص: ١٠٧.

(٣) نفسه، ص: ١٠٦.

ويتمنطقون بأحزمة فضية مموهة بالذهب[١].

وركزت أعمال الحرفيين بدار الطراز على صناعة لباس عسكري للسلطان وقادة الجند،عكس عامة الجند الذين قليلا ماتصنع لهم ألبسة هناك،حيث كانت العلاقة التي تربط بين الدولة والجنود الأجانب تقتضي تقديمهم الخدمة العسكرية للدولة مقابل تلقيهم منها لأجور محددة،إلا إذا كانوا من الأسرى والعبيد الذين صُنعت لهم بدار الطراز أو بغيرها من الدور المخزنية الأزياء العسكرية، وبالنسبة للجنود المحليين فقد قدم معظمهم الخدمة العسكرية مجانا مما يحتمل تلقي عناصرها لألبسة عسكرية من الدولة خصوصا في أوقات وفرتها.

وإلى جانب المعارك والاستعراضات المرينية، ظهر الجيش المريني باللباس العسكري المُميِّز له في معارك غير مرينية، كما حدث ببلاد الأندلس التي شاركت فيها فرق عسكرية مرينية مع فرق نصرية[٢].

- البنـود: تم نعت هذا الزي بأسماء أخرى هي الأعلام والرايات والعلامات والألوية، كانت تعبِّر برفعها في مناسبات العروض والاحتفالات والحروب عن شعار ورمز للدولة.

ولم يكن رفع البنود إبداعا مرينيا ، بل سبقهم إليه الموحدون وغيرهم. وقد استعمل حكام الدولة في الفترة المرينية الوطاسية البنود منذ مرحلة مبكرة ،حيث استعملها أبو بكر المسمى أيضا بأبي يحيى عبد الحق المريني في عصر الإمارة ، وممن تبعه من السلاطين ابتداء من ابنه يعقوب مؤسس الدولة، إذ رفع الجنود في عهده

(١) الحريري: تاريخ المغرب والأندلس، ص: ٢٨٦.

(٢) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص: ٣٩.

الأعلام والرايات ذات اللون الأبيض المميز لها[1] وذلك أثناء المعارك التي خاضها السلطان المذكور في بلاد الأندلس حرصا منه على إثبات مشروعية دولته بالجهاد ضد المسيحيين ورداعلى هجوماتهم على المسلمين هناك.

ولذلك عرفت صناعة البنود تحسينا بتقدم فترات الحكم المريني، فقد تنوعت ألوانها واختلفت أحجامها وارتفع العدد المرفوع منها خلال إجراء تظاهرات ذات طبيعة حربية.وكانت الأثواب مادة أساسية اشتغل عليها العاملون في هذه الصنعة فأبرزوا زخارفها. إلا أن البنود مع ذلك ظلت ترفع فقط في مواكب السلطان و عند حركاته، رغم الإذن للولاة والعمال والقواد باتخاذ كل واحد منهم راية واحدة بيضاء مع طبل صغير أيام الحرب. وقد وصف ابن خلدون البنود في عهد أبي الحسن بأنها كانت كثيرة حسنة الصنعة بلغ عددها في حملاته «مائة من البنود ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير»[2]. مما يعد دليلا على أهمية المعارك والحملات الحربية التي تمت في عهده، وعلى كثرة الجند التي استلزمت التمييز بين الفرق المكونة للجيش .

وبدوره وصف النميري البنود التي كانت ترفع في عهد أبي عنان ذاكرا ألوانها وأشكالها،فقال عن الألوان بأنها تكونت «من أحمر وأخضر وأصفر إلى غير ذلك من الألوان المتفرعة»، واصفا أحجامها بـ«الأعراض المتنوعة»، ذاكرا المواد والتقنيات المعتمدة في صنعتها بقوله «قد استنبهت فيه الصنائع واستقصيت في وشيه البدائع وأودع الخطوط المحكمة بخيط الذهب الإبريز المثبتة شرف التطريز الشارحة نكتة

(١) نفسه، ص: ٣٩٠؛ ابن القاضي : جذوة الاقتباس، ج١، ص: ١٠٣؛ الناصري، الاستقصا، ج٣، ص:٤٢.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، دار القلم، الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م. ص: ٢٥٩.

التمييز»[١]. والكلام المذكور يشير إلى أن الأثواب المنسوجة والمطرزة والمزخرفة تكونت منها الرايات والأعلام العنانية أهمها العلم الخاص بموكب السلطان. وقد حَملت تلك الأعلام آيات قرآنية وأدعية واسم السلطان كتبت بخطوط بديعة ذهبية[٢].وقد أُطلق اسم العلم المنصور على الذي رُفع للسلطان ميزه باللون الأبيض والحجم الكبير وكان رئيسيا [٣]. وكلمة المنصور توحي باللقب الذي اتخذه أحد السلاطين المرينيين الأوائل يعقوب بن عبد الحق (ت٧٠٦هـ/ ١٣٠٧م)، دأب السلاطين بعده على نعت العلم الرئيسي بذاك الإسم تيمنا بمؤسس الدولة . أما الألوان والأحجام والأعداد الكثيرة للبنود فتحمل دلالة على كثرة الجنود وتنوع الفرق العسكرية التي لا تتيمز عن بعضها البعض باللباس فقط بل بالأعلام أيضا.

وقد سار سلاطين بني مرين وبني وطاس على عادة خَفْق البنود في عملياتهم وحركاتهم الحربية، فتم ذلك في عهد أبي سالم المريني عند سيطرته على فاس سنة ٧٦٠هـ[٤]/ ١٣٦٠م، وفي عهد من تولى بعده. إلا أن التجديد والإبداع في صنع البنود واستعمالها يبقى سمة ميزت العصر المريني الأول وبلغت الأوج في عهد السلطانين أبي الحسن وأبي عنان.

لقد تمثل دور البنود في إعلان الحرب وبداية تحرك الجنود بقيادة المسؤولين العسكريين وفي مقدمتهم السلطان.إلا أن هذا الدور أتممته الطبول التي تعد آلة

---

(١)- النميري: فيض العباب، ص ص: ٤٩٧-٤٩٨.

(٢) الحريري: تاريخ المغرب والأندلس، ص: ٢٨٦. علي، حسن إبراهيم : السلطان أبو الحسن علي ص: ٧٧.

(٣) الحريري: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) السلامي، رشيد: وثائق مرينية، مراسلات، معاهدات، ظهائر، دراسة وتحقيق، دبلوم الدراسات العليا، إشراف: محمد زنيبر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ١٩٨٩، ج٢، ص: ٢٩٧.

موسيقية صنعها واستعملها المخزن في الأنشطة ذات الطابع العسكري.

- الطبـول: هي آلة موسيقية تكاملت مع البنود في الوظيفة العسكرية، حيث استعملت إلى جانب البنود منذ بداية حكم الدولة للمغرب، وعادة ما تطابق عددها مع عدد البنود،إذ بلغ ذروته في عهد أبي الحسن وأبي عنان.

لقد تخصصت فرق معينة من الجنود في استخدام الطبول بالضرب أو القرع أو الزعق[1]عليها، وفق إيقاع موسيقي يحصل معه التشهير والاحتفالية وإثارة حماس وشجاعة الجيش ، وإلى جانب ذلك اعتمدت الطبول أحيانا في التشهير بالثوار والمعارضين للدولة مثلما حدث لثائر من غساسة من آل عبد الحق المريني يدعى منصور بن عمر بن عثمان بن عبد الحق بن محيو سنة ٧٦٣هـ[2]/ ١٣٦٣م.

ولم تحمل الكتابات المصدرية معلومات عن طبيعة المواد والتقنيات المستعملة في صناعة الطبول، كما لم ترد إشارات إلى المؤسسة التي صُنعت بها لكن يبدو أن مواد الخشب والجلد والحبال أساسية فيها ، أما تقنياتها فاستدعت تهييء ومعالجة الأخشاب في شكل أسطواني وتثبيت الجلد عليها بإحكام.

وطريقة الضرب بالأعواد على الطبول تمت بالشكل الذي يساعد على النقر الجيد المحدث للصوت يسهم فيه الجلد الدائر على طرفي الأسطوانة الخشبية، أما

---

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج١، ص: ٣٩٠؛ ابن الخطيب : اللمحة البدرية، ص: ٣٩٠؛ الناصري : الاستقصا، ج٣، ص:٤٢.

(٢)- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد بن عبد الله عنان، نشر : مكتبة الخانجي، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ج٣، ص ص: ٢٩٨-٢٩٩.

الذي يضرب على الطبل فيحتاج إلى أحزمة وأشرطة جلدية وغير جلدية تحاط بالطبول وتوضع حول رقبته وعنقه .

وصناعة الطبول استدعت حشر طاقات حرفية لايستبعد أن تكون مصانع الدولة مسهمة فيها، خاصة وأن خزائن السلاطين احتوت على الذخائر والأسلحة والآلات[1].

ومثلما تميزت البنود بالتنوع في الحجم ،حملت الطبول أيضا نفس الميزة .ولذلك كانت الطبول الكبرى خاصة بالسلطان مميزة له عن غيره في المعارك وماشابهها.

-المزاميـر: جمع مزمار، وقد نُعِت أيضا بالنافور وتارة بالنفار، ثم حُرِّف لفظه إلى الناقور أو النقار[2]. ولازالت هذه الآلة الموسيقية مستعملة لحدود الآن تستخدم بطرق متشابهة مع التي تمت في الفترتين المرينية والوطاسية.

فكلمة المزمار تدل على التزميرأوالنفخ بقصد الإعلام والإخبار، حيث كان الزامرون[3] -أي المتخصصون في التزمير- يحدثون أصواتا يتم بها الإعلان عن مظاهر الاحتفال والانتصار واستعراض الجنود وإعدادهم لخوض المعارك.

و قلة الإشارات المصدرية إلى استعمال هذه الأداة الموسيقية الحربية في الفترة المرينية الوطاسية من لدن الجيش تدعم ارتباطها بالموسيقى العسكرية الأجنبية

---

(١) السلامي: وثائق مرينية، ج٢، ص ص : ٣٢٦-٣٢٧.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة ج ٣، ص ص : ٢٩٨-٢٩٩.

(٣) العلوي، عبد العزيز : فاس والتجارة الصحراوية قبل الحملة السعدية على إمبراطورية سنغاي، أشغال ندوة: فاس وإفريقيا، العلاقات الاقتصادية والروحية، معهد الدراسات الإفريقية وكلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس سايس، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ الدار البيضاء، ص: ٩٤، نقلا عن الروض المتون، ص: ١٣.

وخاصة الغُزية، قياسا على نفخ الجنود الأغزاز الخادمين لدولة بني مرين هذه الأداة عند إجرائهم للعمليات الحربية[1]، لذلك يُستبعد شيوع صناعتها بفاس، وإن صنعت كانت بكميات محدودة، قد يكون العنصر الأجنبي مسهما في إعدادها بحكم خبرته.

إن الأزياء والآلات الموسيقية التي استعملت عند بني مرين وبني وطاس في حركاتهم الحربية كانت تثير الحماس لدى فرق الجيش، وترفع معنويات الجنود وتقذف الرعب والخوف في نفوس الجنود الأعداء بشكل يكون أقوى كلما كانت الأزياء والآلات الموسيقية متناسقة ومسهمة في ترتيب صفوف الجنود وتنظيم تحركاتهم.

تمثلت أهمية الأزياء والأدوات الموسيقية العسكرية في اهتمام الحكام بها الذين كانوا يتباهون ويتفاخرون بقوة دولتهم أثناء استعمال الجيش لها ،وذلك ماعبَّرت عنه الاستعراضات العسكرية التي كانت تشهد وقوف عامة الناس في الساحة بالبلد الجديد لمشاهدة أداء الفرق للعروض، والحرص على الظهور بمنظر متميز ومعنويات مرتفعة أمام الأعداء والخصوم.

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص: ١٢٦.

المطلب الثالث

العمارة العسكرية

كان لكثير من المباني أدوار دفاعية يتحصن داخلها الناس تجنُّبا للاعتداءات التي قد يتعرضون لها، وباعتبار مدينة فاس حاضرة استقر بها سلاطين ووجهاء الدولة، فقد وجهت لها عناية في تحصينها من أية هجومات.

لقد أظهر العاملون في حرف البناء إبداعا في تحصين فاس الجديد التي أحاطها بنو مرين بالأسوار المزدوجة المحتوية على الأبراج والأبواب ضمت بداخلها قصورا ومؤسسات جمعت عمارتها بين مظاهر الحصانة والعظمة.

ولم يهمل بنو مرين تحصين فاس القديم لحماية سكانه، فرمَّموا أسواره وجدَّدوا بعض أبوابه وبنوا بعض الأبراج خارجه ليمنحوا العمارة العسكرية خاصية جديدة برزت بشكل أوضح في الفترة السعدية.

- الأسوار والأبراج: مثلت الأسوار والأبراج حدودا للنسيج الحضري حيث تفصله عن ظاهر المدينة (محيطها الخارجي)، وتميزت الفترة المرينية ببناء أسوار فاس الجديد حملت عدة خصائص من حيث هندستها ومواد وتقنيات إنجازها. فقد أشرف السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني سنة ٦٧٤هـ-١٢٧٦م على تخطيط فاس الجديد على يد المعدلين[١] أبو عبد الله بن الحباك وأبو الحسن بن القطان بأخذ طالعها قبل الشروع في حفر أساس أسوارها[٢].

---

(١) التعديل هو التخصص في علم التوقيت ومنه اختيار الوقت المناسب لتأسيس فاس الجديد.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٢٣٠.

وتحدث صاحب صبح الأعشى عن مميزات أسوار فاس قائلا: «وعلى كل من عتيقها وجديدها أسوار دائرة محصنة ذات بروج وبدنات... وتزيد فاس الجديدة بسورين من الطين المفرغ بالقالب من التراب والرمل ... وهو أشد من الحجر ولا تعمل فيه المجانيق»[١]، لذلك كانت الأسوار المرينية تقليدا لما سبقها في الشكل والوظيفة، ميزها الارتفاع والانتهاء في أطرافها العلوية بالبدنات[٢]، وهو مابرر نعتها بالأسوار المسننة[٣]، لها وظيفة الدفاع عن المدينة وسكانها، والإضافة المرينية في بناء التي تحد المدينة هي ازدواجيتها في فاس الجديد، حيث تكونت من سورين منفصلين يحيطان بالحاضرة، يفصلهما فراغ التهوية ومقاومة الحرارة والرطوبة[٤]. وقد بني السوران المذكوران بالطين المتكون من التراب والرمل المخلوطين بالماء.

أما تقنيات البناء فلا تختلف عن التي بني بها فاس العتيق، وهي المعروفة بعمليات «المراكز» و تتم بوضع الألواح الخشبية على طرفي السور، وإفراغ مواد البناء بينها ثم دكها[٥].

ودخلت مادة الكلس المضروب أيضا في بناء أسوار البلد الجديد[٦] لكن دورها اقتصر على زخرفة الواجهات الخارجية فقط، وتدعيم ما بني بالرمل المخلوط

---

(١) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، دون تاريخ، ج٥، ص: ١٥٥.

(٢) البدنات هي النتوءات التي تنتهي بها الأسوار في أعلاها، ولها دور دفاعي وجمالي.

(٣) لوتورنو، فاس قبل الحماية، ترجمة : محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م. ج١، ص: ١٥٢.

(٤) بلغ عرض سور فاس الجديد مترين وارتفاعه ثمانية أمتار حسبما ذكره الطاهري، أحمد صالح: العمارة في العهد المريني، معلمة المغرب، م١٨، ص: ٦١٧٨-٦١٧٩.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٤.

(٦) القلقشندي: المصدر السابق، نفس الصفحة.

بالتراب بدقة وعناية من طرف المختصين في البناء والزخرفة.

وتعد الأبراج جزءا مُميزا من الأسوار، لها وظيفة المراقبة بفعل علوها وإشراف القائمين فيها على داخل وخارج المدينة. وأبراج أسوار فاس الجديد اتصفت بأشكال مربعة ومستطيلة، واحتلت نقطا متعددة أهمها التي تطل على مواقع استراتيجية.

وتمثل الأبواب مداخل وفتحات بالأسوار يلجها الداخلون إلى المدينة والخارجون منها ، لذلك احتوت أسوار فاس الجديد على بابين يفصلان الأسواق الموجودة بينهما هما باب القنطرة في الجهة الشمالية وباب عيون صنهاجة في الجهة الجنوبية[١]، يضاف إليهما باب السبع الذي احتل مكانا غير بعيد عن باب القنطرة[٢] مخصصا لعبور السلطان ومساعديه وأقربائه، أما حي اليهود في الجهة الجنوبية للبلد الجديد فكانت له أبواب خاصة.

واهتم بنو مرين بحصانة الأبواب من حيث البناء ووضع الفصائل[٣] الخشبية المثينة (يتكون كل باب من فصيلة أو فصيلتين تربط أو تربطان طرفي المدخل) ، كانت تغلق وتفتح من طرف الحراس وأحيانا على يد مسؤولين إداريين وسياسيين[٤] ينالون ثقة السلطة في فترات الأزمة، وتميزت زخرفة الأبواب الآنفة الذكر بكونها أقل مما عرفته نظيراتها في فاس القديم، قد يستثنى منها باب السبع المؤدي إلى القصر السلطاني.

---

(١) ابن الأحمر: روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص: ٢٩.

(٢)- لوتورنو، روجي: فاس قبل الحماية، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج١، ص: ١٠٣.

(٣)- وردت الفصائل في قول ابن خلدون: العبر، ج١، ص:٤٣٧.

(٤)- العودة إلى ابن القاضي: الجذوة،ج١،ص ص ١٢٥-١٢٦.

وتزيد الأبراج عن الأسوار بكونها تشكل بناية تحتوي أحيانا على طابقين يبدو أن الأرضي كان مخصصا لإيداع ما يحتاجه المراقبون من عتاد وأسلحة وأمتعة، والفوقي تمت منه عمليات المراقبة والدفاع عن المدينة. وترتفع الأبراج عن مستويات الأسوار العادية، ولازالت العديد منها قائمة خاصة في الجهة الشرقية والجنوبية الشرقية التي كانت أكثر عرضة للأخطار، ومايدعم هذا الطرح بخصوص تلك الجهة هو بناء السعديين أبراجا ضخمة على مشارفها[1].

ولم يغض المرينيون الطرف عن تحصين أسوار فاس القديم أيضا التي جددوا ورمموا بعض أجزائها وأبراجها وأصلحوا أبوابها، نتيجة ما لحقها من تخريب وتهديم جراء الفتنة التي مرت منها فاس في الفترة ٦١٧هـ-٦٣٧هـ، فقد بني الجزء المتهدم من السور الموجود بين باب زيتون ابن عطية وباب الفتوح بأمر من يعقوب بن عبد الحق سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٣م. وشهدت نفس المنطقة بناء برج عظيم خارج باب زيتون ابن عطية سمي بالبرج المكتوب، ذَكَر الأستاذ المنوني أن آثاره كانت لا تزال قائمة، وقد تكون الأعمال التي تمت في تلك الجهة وخاصة شق الطريق المعبدة ساهمت في اختفاء معالم هذا البرج. وفي سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٦م، تم في عهد نفس السلطان حين كان غازيا بالأندلس إصلاح باب عجيسة الموجود في الجهة الشمالية باستثناء «القوس البرّاني»[2]، والأهداف من إنجاز هذه الإصلاحات والأعمال هي حماية المدينة العتيقة من الهجومات التي تهددها ومن الممكن أن تَضر بالفئة العريضة

(١) نفسه، ص: ٥٠.

(٢)- نفسه؛ ابن أبي زرع ،علي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، ١٩٧٣، ص ص.٤٢-٤٣؛ المنوني: حضارة بني مرين من خلال منشآتهم، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص ص: ٢١-٢٣؛ وذكر هؤلاء أن القوس البراني من باب عجيسة وجد صحيحا فترك كما هو،في حين أصلح وبني ما تبقى من الباب.

من الرعية وبأنشطتها. وللبرج المكتوب المشار إليه أهمية في حماية المناطق التي وُجدت خلفه وكانت شبه فارغة من البنايات ضمت حدائق ومقابر يسهل على الأعداء اقتحامها، كما لهذا البرج أيضا دور في مراقبة ضاحية فاس الجديد من ناحية وادي الزيتون والجهة الشمالية المشرفة على فاس حيث كدية العرائس المعروفة أيضا بالقُلة.

وبخصوص الأبراج أيضا، شيد بنو مرين برجا يجلس فيه السلطان للإشراف على عروض الجند ومتابعة الصراع بين الثور والأسد، وقد كانت ساحة البلد الجديد المتواجدة بظاهر المدينة البيضاء ميدانا لتلك العروض[1]، ولعل هذه الساحة كانت تقع غير بعيد عن باب السبع فيما يسمى حاليا بباب المكينة.

وقد أشارت المصادر إلى جلوس كل من أبي الحسن وأبي عنان وأبي سالم في هذا البرج- الذي عرف ببرج الذهب- عرضا للجيش ومتابعة للصراع بين الثور والأسد، ورغم الحديث عن تأسيس أبي سالم لهذا البرج[2]، فالغالب على الظن أن إنجازه تمثل فقط في تجديد ما كان قائما بإصلاحه وترميمه وزخرفته، مادام أن جلوس السلاطين به على الأقل منذ فترة أبي الحسن أمر ثابت.

- القصبات والقصور:

تتشابه القصبات مع القصور في البناء العالي الحصين، وتختلف معها في كون القصبات عادة ما تكون رباطات للجنود في حين أن القصور موطنا للسلاطين

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م، ص: ٦٤٣. ابن الأحمر وآخرون : بيوتات فاس الكبرى، ص: ٤٨.

(٢)- ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٣٦٧؛ عبادي، أحمد مختار : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، دون تاريخ، ص: ٤٣١.

وذويهم.

القصبـات: بنى بنو مرين عدة قصبات خارج فاس الجديد[١]، عددها قليل أُنشئت أهمها في الجهة الشمالية الشرقية قريبا من مقبرة ابن العربي، تغير إسمها في العهود التي تلت الفترة الوطاسية فأصبحت تعرف بقصبة الشراردة.

وأولى سلاطين الدولة اهتماما بقصبات فاس العتيق، حيث جدد السلطان أبو يوسف يعقوب المريني قصبة أبي الجنود[٢] بعدما تم هدمها [٣]،فاحتضنت الأعمال الإدارية إذ استقر داخلها ممثلو السلطان، لكن دورها تراجع لصالح المرافق التي أنشئت بفاس الجديد.

لكن الملاحظة الأساسية المسجلة بهذا الصدد هي قلة القصبات المرينية، التي على الأقل لم تتطور عن العهود التي سبقتها، ويعزى ذلك إلى احتضان البنايات المخزنية للأعمال العسكرية وغير العسكرية التي كانت تتم بالقصبات ، كما أن مجال فاس الجديد الفسيح الذي كان يستقر به الجند سواء في دورهم أو أخبيتهم وخيامهم كان مبررا لقلة القصبات.

القصـور: تدخل القصور السلطانية ضمن البنايات العسكرية رغم وظائفها السياسية والإدارية، فمصطلح القصر يرادف الحصن، وشكل بنايته يمنحه المناعة، وهو رمز للسيادة والسلطة. والقصورالمشيدة في الفترة المرينية الوطاسية تميزت كغيرها بعلو الأسوار وضخامة الأبواب وكثرة الحرس.

---

(١) المنوني، حضارة بني مرين ،مذكرات ، م٣، ص: ١٨.

(٢) نسبة إلى باب أبي الجنود الذي دعي أيضا بباب بوجلود وهو أحد أبواب المدينة العتيقة من الجهة الغربية .

(٣) زنيبر محمد: بوجلود، معلمة المغرب، م٥، ص: ١٦٤٢.

والإشارات الواردة عند المؤرخين تفيد بأن القصور السلطانية المرينية بفاس الجديد تأسست في جهة من جهات القصر الملكي الحالي، والمكان الذي بُنيت فيه عُرف بالمصارة التي احتوت أيضا على حقول وبساتين ممتدة من فاس القديم، تتوغل داخل فاس الجديد، إذ ذكر ابن أبي زرع أن فحص المصارة الذي يقع خارج باب الشريعة كان يُستغل في زراعة القمح[١]، تم تحويل مناطق منه إلى قصور وجَنَّات[٢]. وأول القصور المرينية المشيدة هو المؤسس سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م عند بناء فاس الجديد، وقد كان هذا القصر رئيسيا لدى السلاطين المتعاقبين على الحكم ، أكد ذلك كلام النميري الذي أقر بوجوده في المصارة المذكورة آنفا حيث قال: «سكن بالمصارة التي بها قصر السلطان وخواص الدولة ووجوه الخدام وقواد الأجناد الذين عمروا مقامات الأسراج والألجام وضربوا هنالك أخبيتهم»[٣].

لكن البلد الجديد عرف أيضا بناء قصور أخرى منها الذي بناه يوسف بن يعقوب وسماه قصر الدار البيضاء وغرس في ذات الوقت هناك جنة المصارة[٤].

وقد توسعت بنايات القصور في عهد أتباع السلطان المذكور ، فشهدت مناطق خارج البلد الجديد بناء قصور منها الذي بكدية العرائس في الجهة الشمالية الشرقية

---

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، ص: ٤٤.

(٢) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس، ص ص: ٤٨-٤٩، الذي ذكر أن «حسن بن خلوف الصنهاجي الحميري»...» اغترس لأبي الحسن المريني الزيتون الصغير المجاور للزيتون الكبير... بوادي غدير حمص، وكان عاملا على الروض الأفيح المسمى بالمصارة حيث قصور السلطان من ظاهر دار الإمارة بالمدينة البيضاء».

(٣) النميري: فيض العباب، ص: ١٧٣.

(٤) الناصري: الاستقصا، ج ٣، ص: ٨٩.

لفاس الجديد بعيدا عن أسوارها الخارجية[١]، باشر فيه سلاطين الدولة أنشطتهم السياسية،إذ به عقد السلطان أبو الربيع سليمان (٧٠٨-٧١٠هـ/ ١٣٠٨-١٣١٠م) اتفاقية مع بعثة قشتالية أرغونية سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م[٢]، وكانت لهذا القصر أهمية عسكرية فكثيرا ما نزل فيه المطالبون باستعادة الملك قبل التمكن من دخول فاس الجديد بحكم استراتيجية موقعه. وبالجهة الجنوبية الغربية أنشأ أبو سعيد عثمان (٧١٠-٧٣١هـ/ ١٣١٠-١٣٣١م) قصرا برأس الماء قريبا من منابع نهر سبو لم يتممه، فظلت آثاره بادية لحدود الزمن الحالي، وهو ذو شكل مربع[٣].

وفي عهد أبي سالم (٧٦٠-٧٦١هـ/ ١٣٦٠-١٣٦٢م) تم بناء قصر روض الغزلان ،بدار الدبيغ الحالية، لعله كان يقع في حي الأطلس الحالي بالجزء المطل على وادي الزيتون. لكن الأستاذ المنوني ذهب إلى أنه هو القصبة التي لازالت قائمة بحي السعادة الحالي أمام ثانوية مولاي سليمان. كما بني في عهد أبي سالم أيضا قصر بفاس القديم يبدو أنه بحي الزيات بين بابي الحديد والجديد في القسم الجنوبي الغربي[٤].وبحي الزيات أيضا بُني في عهد أبي سعيد الثاني قصر عرف باسم الطريفي حاجب السلطان آنذاك ، وقد تهدم وتحول إلى منزه، عرف أيضا بالاسم نفسه[٥]أي منزه الطريفي.

---

(١) Gambazard, Amahan Catherine: Le décor sur bois dans l'architecture de Fès, époques almoravide, almohade, et début mérinide, centre national de la recherche scientifique, Paris, 1989. p : 141.
وقد أشارت إلى وجود بقايا مرينية بالقُلة تضم قصرا ومساكن ومساجد وحمامات.

(٢) Dufourcq, Charles Emmanuel: L'espagne Catalane et le Maghreb aux 13ème et 14ème siècles, Paris 1966, pp : 396-397.

(٣) المنوني: حضارة بني مرين، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٣٧.

(٤) نفسه؛ لوتورنو: فاس قبل الحماية، ج١، ص: ١٧٧، ابن القاضي : جذوة الاقتباس، ج١، ص: ٢٠٨ الذي أشار إلى قتل أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمن بن أبي الحسن المريني (٧٦٣-٧٦٧هـ) بسانية هذا القصر غرقا.

(٥) المنوني: حضارة بني مرين، مذكرات، م٣، ص: ٣٨.

وبما أن الفترة الوطاسية ميزها الاضطراب ونظرا لقصر مدتها مقارنة مع نظيرتها المرينية، فإنها كادت تغيب فيها الأعمال المعمارية العسكرية، اللهم الحفاظ على الإرث المريني بصيانته وإصلاحه.

لقد أثبتت العمارة العسكرية المرينية نجاعتها أمام الهجومات التي تعرضت لها مدينة فاس وخاصة الجديدة. إذ تحصن بها السلاطين حين قامت ضدهم ثورات عجز فيها المهاجمون عن الدخول إلى فاس الجديد بعد تمكنهم من السيطرة على الأوضاع خارجه، رغم ما استخدموه في تلك الهجومات من حصار كانت تطول مدته وتستعمل فيه آلات القذف، ومما يمكن الاستدلال به نموذجين :الأول حصار أبي عنان بقوته الحربية أحد المتنازعين معه على السلطة سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م في أعقاب إشاعة خبر غرق أسطول أبي الحسن بمياه البحر المتوسط في إطار الحملة على إفريقية، فلم يتمكن من دخول فاس الجديد إلا بعد تدبيره لثورة ضد خصمه داخل المدينة[١]، والثاني هو الحصار الذي ضرب على فاس الجديد أيضا سنة ٧٧٦هـ من طرف أبي العباس والأمير عبد الرحمن المدعومين من ابن الأحمر النصري، وكان هذا الحصار متبوعا بتقديم البيعة من طرف أبي بكر بن غازي الذي كان متحصنا داخل الأسوار للسلطان أبي العباس الموجود خارجها[٢]، حيث لم يتمكن المحاصرون من اقتحام المدينة.

---

(١) خَصمُ أبي عنان هو ابن أخيه المنصور بن أبي مالك الذي هرب أمام أبي عنان من تازة إلى فاس التي دخل مدينتها الجديدة في ربيع الثاني سنة ٧٤٩هـ ليُحاصر من طرف أبي عنان،أورد ذلك الناصري: الاستقصا، ج٣، ص: ١٦٥.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٣٧٠؛ المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق : محمد السقا- إبراهيم الأبياري- عبد الحفيظ شلبي،اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي المغربية الإماراتية، صندوق إحياء التراث، الطبعة الثانية، نشر مطبعة فضالة، المغرب، ١٣٩٨هـ-١٩٦٤م، ج١، ص: ٢٢٨.

المبحث الثاني

سك النقود

السك يرادف الختم أو الضرب. ويمثل أهم عملية في صناعة النقود وآخرها بعد مرحلتي السبك والتخليص ثم المد والقطع، إذ تُعد النقود علامة من علامات الدولة وأحد رموزها. فابن خلدون يعرف عمليات السك قائلا: «هي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس *بطابع* حديد تنقش فيه صور أو كلمات مقلوبة، ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة»[1]. وقد اعتنى سلاطين بني مرين بعمليات السك بحاضرة فاس، فتم نقل دار السكة إلى فاس الجديد وتعيين أشخاص للنظر في أعمالها على رأسهم الناظر أو الأمين الذي كان مشرفا على تنظيم العمل وتتبع مراحل الصنع.

وتتلخص وظيفة الناظر في: «النظر في النقود المتعامل بها بين الناس وحفظها مما يداخلها من الغش أو النقص إن كان يتعامل بها عددا أو ما يتعلق بذلك ويوصل إليه من جميع الاعتبارات»[2]، لذلك فسلامة النقود من الغش والتدليس كانت أهم تحد يواجه الناظر، وهو بعمله يحفظ للدولة سيادتها واستقرارها ويحرص على حقوقها وحقوق المجتمع.

وقد تم عمل الناظر بترؤسه لجهاز إداري، يتكون من شاهدين وحراس وغيرهم، ويتكامل في أعماله مع الجهاز التقني الذي يباشر عمليات صنع النقود. ويعتبر الصرافون أهم الزبناء المتعاملين مع دار السكة حيث يدفعون كميات من المعادن تحول لهم نقودا.

---

(١) ابن خلدون : المقدمة، ص: ٢٦١.

(٢) نفسه، ص: ٢٢٦.

المطلب الأول

الإجراءات التنظيمية

- مقر دار السكة:

حافظت مدينة فاس على وظيفة السكة بضرب النقود بها منذ العصر الإدريسي.لذلك صُنعت بدار السكة في الفترة المرينية نقودا ذهبية وفضية،وقد تغير شكل الدينار الذهبي من مربع إلى دائري ، بينما استمر شكل الدرهم الفضي مربعا. واستفادت السكة المرينية في صدر الدولة من أعمال الناصر الموحدي الذي كان له فضل توحيد سك النقود بفاس سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م، إذ ضربت في عهده وفي عهد من تلاه بتلك المدينة نقود لها مصداقيتها[١]، واستمر بنو مرين عند توليهم الحكم في ضرب نقودهم بفاس القديم، إلى أن استقرت الأوضاع العامة للدولة فتم نقل أعمال السك إلى فاس الجديد بعد بنائها سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م، حيث احتضنت قصبة ربض النصارى المقر الجديد للسك -كما ورد عند ماسينيون-، وأضاف بعض الباحثين أن مكان دار السكة كان يقع قرب باب الدكاكين[٢] ومن الراجح قربه من القصر السلطاني.

- تمويل دار السكة:

تميز نظام العمل بدار سكة فاس الجديد بامتلاك الدولة لكميات معدنية من

---

(١) الحكيم، علي بن يوسف أبو الحسن: الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق: حسين مؤنس، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص: ٦٨.

(٢) Massignon : Le Maroc dans les premières années du 16ème siècle, P : 227.

المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، ص : ٣٤.

ذهب وفضة ونحاس... ضُربت للصرافين نقودا تستبدل لهم بعد دفعهم لمعادن لذلك الغرض وبأدائهم أجرة معلومة مقابل ذلك. وقد استثمرت الدولة مداخيل دار السكة في القيام بأعمال هذه الدار وتوفير متطلباتها، حيث كان يدفع منها الناظر أجور العاملين وينفق أموالا فيما تحتاجه عمليات السك ودار السكة من مصاريف.كما استغلت الدولة أيضا مالا مدفوعا لدار السكة بقصد ضربه نقودا عرف بـ«الفايد» الذي يتنمى بما يضاف إليه من أجور يدفعها الصرافون نظير عمليات الضرب بالدار. لكن أعمال دار السكة تراجعت لحد كبير بسبب ضرب نقود مغشوشة خارجها خلقت ريبة في الأسواق انتقلت بفعلها الدار إلى الاقتصار في عملها على ضرب نقود للصرافين فقط، ويتكلف الناظر بدفع أجور العاملين من متحصل الأجور التي يدفعها الصرافون[1].

والجدير بالذكر، أن أبا الحسن المريني حاول استدراك تراجع رواج دار السكة، بتخصيصه لألف مثقال ذهبي وألف أوقية فضية كي تكون تحت يد الناظر حتى يتمكن هذا الأخير من الاستمرار في العمل بنظام «الفايد»[2] أي الاستثمار، لكن البادي هو أن انشغال السلطان المذكور بالجبهة الشرقية واستقراره في تلمسان حال دون تحقيق ذلك. ومن المفترض أن الفترة التي سبقت تولي أبي الحسن للحكم تم خلالها العمل بنظام «الفايد» كانت الدولة معه مالكة للكمية المعدنية التي تحول إلى نقود، في حين أن الفترة اللاحقة لحكم نفس السلطان تحول فيها نظام العمل بدار السكة إلى قبض الأجرة التي تؤدى لدار السكة مقابل تحويل معادن الصرافين إلى نقود بطلب منهم[3].

---

(١) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ٩٤-٩٦.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ص ص: ٦٥، ٧٨، ١٠٥.

- تحقيق أوزان النقود:

بما أن الدور الرئيسي لدار السكة هو توفير النقود كوسيلة أساسية في المعاملات المالية،ولكي يكون هذا الدور فعالا قام أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق خامس حكام بني مرين بضبط أوزان النقود وتحقيقها وفقا لنموذجين هما : أوزان النقود المضروبة في صدر الدولة الإسلامية وتلك المسكوكة في عهد محمد الناصر الموحدي، وقد هدف أبو يوسف بهذا الإجراء إلى تنويع النقود المسكوكة، فضربت الرئيسية منها وهي الدينار الذهبي والدرهم الفضي، والفرعية منها وهي أجزاء الدينار وأجزاء الدرهم، فضلا عن الخراريب النحاسية أو الفلوس التي كانت تصنع خارج دار السكة دون طبعها. وكل ذلك تلبية لحاجيات المتعاملين بالنقود وتفاديا للخصومات والنزاعات التي كانت تطرحها النقود المختلفة غير المضبوطة الأوزان. وهذه لائحة موضحة لأوزان النقود المرينية[1]:

(١) تم الاعتماد على عدة مصادر ومراجع في صياغة معطيات الجدول هي: ابن خلدون: المقدمة، ص: ٢٦٣؛ الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ١٠٢-١٠٤؛ ابن بطوطة: تحفة النظار، ص: ٦٤٥، العمري، عبد العزيز بن إبراهيم: الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسولﷺ، مركز التراث لدول الخليج العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٥ ،ص ص: ١٥٣-١٥٥؛ أفا، عمر: الدرهم، معلمة المغرب، م١٢، ص: ٤٠٢١، نفسه: الدانق، معلمة المغرب، م١٢، ص: ٣٩٤٣؛ أبو العباس أحمد بن أحمد العزفي السبتي: إثبات ما لابد منه لمن يريد الوقوف على أحوال الدينار والدرهم والصاع والمد، مخطوط بمكتبة محمد بن عبد الهادي المنوني الخاصة، ٦٩ ورقة مكتوبة بخط أندلسي، دون تاريخ ، ورقات ٢٩، ٣٠، ٣٣، ٤٥، ٤٦، ٦٨.

الإسم	نوع المعدن	الوزن بـ:عدد حَبات الشعير	الوزن بالغرام
الدينار	الذهب	٧٢	٤٫٧٢٩
الدرهم الكبير	الفضة	٨٤	٥٫٥١٧
درهم الكيل	الفضة	٤٠٫٥	٢٫٩١١
الدرهم الصغير	الفضة	٢٨	١٫٨٣٩
الدانق	الفضة	٨٫٤	٠٫٤٨٥
القيراط	الفضة	٣	٠٫٢٤٢

لقد جمعت النقود المرينية إذن بين الشرعي والعرفي، فالدينار تحقق وزنه على أساس الدينار المسكوك في صدر دولة الإسلام، ودرهم الكيل تطابق وزنه مع الدرهم الشرعي، في حين استمر ضرب الدرهمان الكبير والصغير بالوزن الذي عرفا به في المغرب.

وتأسست الأوزان المتوسطة والكبرى على أوزان النقود ، فقد عادل وزن الأوقية عشرة دراهم وثلثي درهم كيلية فضية أو ستة دنانير وثلثا دينار ذهبي، أما الرطل فعادل ١٢٨ درهما كيليا، ويعتبر الوسق أثقل الأوزان[1].كما أن أوزان النقود بدورها تأسست بالقياس على المعتدل من حبات الشعير.وقد تم ضبط وزن تلك الحبات كذلك وفق مايبينه الجدول التالي[2]:

(١) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ١٠٤-١٠٥؛ ابن خلدون: المقدمة، ص: ٢٦٣.

(٢) الحكيم: الدوحة، ص: ١٠٤.

جدول: الأوزان المؤسِّسة لوزن حبة الشعير

الوحدة	حبة شعير	الأرزة	السمسمة	الخردلة	ورقة نخالة	الذرة
الوزن	أربع أرزات	أربع سمسمات	أربع خردلات	أربع ورقات نخالة	أربع ذرات	١ على ١٠٢٤ من وزن حبّة الشعير

وكان للفقهاء فضل في ضبط أوزان النقود وتحقيقها بأمر من السلطان أبي يوسف يعقوب. وتولى الناظر بدار السكة مسؤولية مراقبة تلك الأوزان وضبطها.

- زجر الغش في النقود:

لقد مثلت ظاهرة الغش في النقود عائقا رئيسيا بذل السلاطين مجهودات لمحاربته، بتعيين ناظر يُعرف بأمانته وديانته من جهة، ومعرفته بصناعة النقود وتقنيات تحويلها من جهة أخرى، مع اتخاذ إجراءات ضد المسؤولين عن الغش خاصة من اليهود، وهي إجراءات لا يستطيع أحد غير السلطان تنفيذها.

وقد راجت النقود المغشوشة بشكل كبير بأسواق فاس، فألحق ذلك ضررا بالتجارة والتجار الذين رفعوا الأمر إلى السلطان أبي الحسن فأصدر ظهيرا سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م تم بموجبه عزل اليهود الذين ثبت غشهم في النقود عن حرف الصياغة والصرف والقبض، والسماح لهم بممارسة حرف أخرى لاضرر يلحق

الناس باشتغالهم فيها مثل صناعة اللصاق والزجاج وغيره[١].

وبعد استمرار الوضع على تلك الحال، عاد اليهود لممارسة الحرف التي مُنِعُوا منها خاصة بعد توجه السلطان أبي الحسن لتلمسان وتفرغه للغزو في إفريقية. فظهر غشهم من جديد، فرفع الأمر إلى السلطان أبي عنان سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٦م ،الذي ألزمهم بعدم الغش في مصوغاتهم وبعرضها على الناظر بدار السكة وإبعاد كل شخص منهم عن الحرفة التي غش المسلمين فيها[٢].

لكن مايبدو هو أن ظاهرة الغش في النقود كانت تتراجع بعد إصدار القرارات السلطانية دون أن تتوقف نهائيا ،ثم سرعان ماتستفحل من جديد فيظهر أثرها على الأوضاع الاقتصادية.ومايعبر عن ذلك هو كثرة الدراهم المقروضة ونقص أوزان الدنانير في الأسواق ،مما جعل السلطان أبي فارس عبد العزيز يصدر أمرا «بأن منع من المعاملات بالدراهم الزائفة الناقصة وأنه لا يكون التعامل إلا بالمسكوكة الوازنة الخالصة» وأن تتم معاقبة المخالفين لهذا الأمر والمتعاملين بالنقود المغشوشة[٣].

إذا كانت عمليات الغش في النقود عرفتها فترات السلاطين المذكورين فإن الفترات السابقة واللاحقة لها لم تسلم هي الأخرى من ذلك فالسابقة كانت تمر فيها الدولة بمرحلة التأسيس واللاحقة كان الضعف قد أصاب الدولة، مما أسهم في عدم تهيئ الظروف لزجر القائمين بالغش.

---

(١) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ١٣٧-١٣٨؛ السلامي: وثائق مرينية، د.د.ع، ج٢، ص: ١٤٠.

(٢) الدوحة، ص: ١٣٩.

(٣) نفسه، ص ص: ١٣٩-١٤٠.

المطلب الثاني

أعمال الإداريين والسكاكين

سبق القول إلى أن فريق العمل بدار السكة تكون من جهاز إداري ترأسه الناظر وجهاز تقني مثلته فرق عمل يشرف عليها السكاكون، لذلك كانت مهام الإداريين تنظيمية في حين قام السكاكون بمهام تقنية وعملية.

١- أعمال الإداريين:

تشكل الجهاز الإداري في دار السكة بالإضافة إلى رئيسه من شاهدين وكتاب وحراس.

- *الناظر:*

كان الناظر مسؤولا بدار السكة في معظم فترات الدولة، وتحمل الأمين المسؤولية في بعض فتراتها في وقت كان الناظر مساعدا له[١]، وتعين كل منهما من قبل السلطان الذي اشترط فيهما الأمانة والديانة والمعرفة بالصناعة المعدنية التي تمكن من «التمييز بين النقود وأوصاف المعادن وما يصلحها وما يفسدها وأسباب غشها وما يزيله» إضافة إلى الخبرة في معرفة خطوط الطوابع الموضوعة على القطع النقدية[٢]. حتى يتمكن المسؤول بدار السكة من المحافظة على أمانات العاملين والمتعاملين مع الدار ودفع الغش وزجر المخالفين كي تكون للسكة قيمتها ما دامت تحمل علامة

(١) أفا، عمر: دار السكة المغربية، معلمة المغرب، م١٢، ص: ٣٩٢٢.

(٢) الدوحة، ص.ص: ٦٩-٧٠.

من علامات الدولة.

ولتحقيق تلك المهام كان الناظر يراقب عمل السكاكين فيُقدَّم المعدن المدفوع للسك بحضوره، ويَتَتبع عمليات السك بمراحلها المتسلسلة من سبك وتخليص ثم مد وقطع فنقش وطبع،كما يحرص على مراقبة «الفرض» الذي يضيفه السكاك للذهب أو الفضة الخالصين وهو أوقية من نحاس في كل مائة أوقية من ذهب أو فضة، إذ أن القدر الزائد على ذلك يوقع بالنقود المسكوكة في الغش. وبعد سك النقود يختبرها الناظر بالصنجات والإمام الموجودة في الجولق[1]، ولا يقبل إلا الخالص والجيد منها[2].

ولضمان سلامة النقود الرائجة في الأسواق، تجاوز عمل الناظر أسوار دار السكة، فكان يتجول في الأسواق باحثا عن الصيارفة[3]، ومراقبا لما بيدهم من دنانير ودراهم، والتحقق من طوابعها وسلامتها من الغش، مع بحثه عن الصياغين ومراقبته الطوابع التي يضعونها على الحلي حتى يتأكد من صحتها بخطوط طوابعها التي تتميز عن طوابع النقود[4].ومن خلال ذلك يظهر أن الصياغين هم المتهمون بضرب النقود المغشوشة خارج دار السكة.

- الشاهدان:

هما العدلان القائمان بعملهما في دار السكة ،اعتمد الناظر عليهما في مراقبة المسكوك من النقود وضبطه، ويعينان من طرفه أو من طرف السلطان، ويساعدان

(١) نفسه، ص ص: ٨٢، ٨٦، ٨٧، ٩٤.

(٢) نفسه، ص ص: ٧٢-٧٣.

(٣)الصيارفة أو الصرافون.

(٤) نفسه، ص: ٧٠.

الناظر على تجنب الوقوع في «مناكرة بين الدافع والصانع»[١]، أي بين الصراف والسكاك. وكانا يتناوبان على العمل يوما بيوم أو شهرا بشهر ، وقد يُعوَّضان بشاهدين آخرين.ويكون لكل واحد منهما مفتاح الجولق الذي يحتوي على الصنجات والإمام، ويراقبان طبع النقود، وضبط ما قبضه السكاكون وما أرجعوه مسكوكا على رأس كل شهر واختبار ما صنع من نقود بالوزن والصنج وجودة الطبع[٢].

- الكتاب:

يستعين الشاهدان في دار السكة بكتاب[٣]يحررون أعمالهم في سجلات يضبطون فيها ما تتلقاه دار السكة من الصرافين من ذهب أو فضة، وذلك بتسجيل الوزن وأوصاف النقود المطلوبة وثمن الأجرة والتاريخ وأسماء أصحابها أو أوصافهم على الأقل وغير ذلك. كما يضبطون أيضا ما رجعه السكاكون من نقود مطبوعة بالوزن، والذين تتم محاسبتهم على ما أرجعوه على رأس كل شهر[٤]من قبل الناظر.

-الحراس:

تم النظر في حراسة دار السكة بتعيين حارس يقف أمام باب الدار نهارا. ويمنع دخول «أهل الفراغ والأطماع» تجنبا لما قد يحدثونه من عرقلة للأعمال ونهب

---

(١) الجولق هو صندوق توضع فيه الصنجات التي يتم بها الوزن، والإمام هو نموذج للدينار الذهبي المضروب بدار السكة.

(٢) نفسه، ص ص: ٧١، ٨٠، ٨٣.

(٣) أفا، عمر: المرجع السابق، نفس الصفحة؛ الحريري: تاريخ المغرب والأندلس، ص: ٢٩٧.

(٤) الدوحة، ص ص: ٧٠-٧١.

للأموال. كما يتولى حارس آخر مراقبة دار السكة من أعلاها ويدعى السَّامر[١] نسبة إلى قضائه الليل في الحراسة والمراقبة.

تلك إذن هي أعمال الجهاز الإداري التي استهدفت الحفاظ على سلامة النقود المضروبة بدار السكة والمروجة بالأسواق. وأمّنت حقوق الدولة والصرافين وغيرهم من المتعاملين بالنقود.

٢- أعمال السكاكين:

السكاكون هم المعلمون الذين يشتغلون تحت إشراف ناظر الدار ،ويشغلون معهم صناعا ومتعلمين ، وتتم أعمالهم عبر مراحل ، وباعتماد مواد أولية وأدوات في سك النقود بقصد إخراجها للرواج في الأسواق .

- فريق العمل:

يتكون هذا الفريق من ثلاثة فئات هي: المعلمون، العمالون والمتعلمون، وترتيبها يوافق التراتب، فالمعلمون أفضل مكانة بينهم باعتبارهم أرباب العمل يُدعَون أيضا بالسكاكين، يتميزون بخبرتهم في صناعة السكة بمراحلها وتقنياتها، لذلك كانوا يتحملون مسؤولية أعمال السك أمام الناظر[٢]، فيتسلمون منه الأشغال من ذهب وفضة وغيرهما يحولونها إلى نقود مطبوعة، ثم يتسلمها منهم الناظر بالوزن والأوصاف المطلوبة.

أما العمالون فهم صناع تتعدد تخصصاتهم حيث تشمل السبك والتخليص

(١) نفسه، ص: ٨٣.

(٢) نفسه، ص: ٧٤.

للمعدن، ومده إلى سبائك،ثم تفصيله قطعا نقدية تطبع بعد التأكد من صحة صنعها. ويمكن للصانع الواحد الجمع بين أكثر من تخصص، كما يمكنه الانتقال من تخصص إلى آخر حسب الخبرة والمهارة التي تكونت لديه.

أما المتعلمون، وهم الفئة الثالثة فإنهم يشتغلون تحت إمرة الصناع،وهم مبتدئون تسند إليهم الأعمال البسيطة التي لا تتطلب مهارة وإتقانا للصنعة مثل إيقاد النار في الأفران وتنظيف المعدن والقطع النقدية وجمعها وتشبيبها[1] وغير ذلك.

لقد انقسم القائمون بصناعة السكة إلى عدة مجموعات، تتكون كل واحدة من معلم وعمالين ومتعلمين، ويكثر فيها عدد المتعلمين عن الصناع،وعدد هؤلاء عن المعلمين . وكانت دار السكة بمثابة مدرسة يتكون داخلها العاملون بها، إذ يتدرج الفرد من متعلم إلى صانع ثم إلى سكاك حسب مدى اكتسابه للمهارات الحرفية خلال مدة عمله، وقد كان السكاكون يتحرون في انتقاء الصانعين والمتعلمين الذين يعرفون بثقتهم وعدم نقلهم لأخبار وأسرار الصنعة لغيرهم، فضلا عن الجد والإخلاص في العمل. واحتفظ السكاكون لأنفسهم بإنجاز بعض الأعمال حفاظا على خبايا صناعة السكة، فكانوا بذلك يشكلون طائفة يصعب اختراقها من طرف أجنبي[2]، حتى يتجنبون نقل تقنيات عملهم ومنافستهم فيه.

- المواد والأدوات:

احتاجت أعمال السك إلى مواد أهمها المعادن، واستعملت فيها أدوات

---

(١) يقصد بتشبيب القطع النقدية غسلها بمحلول الشب.

(٢) العجلاوي، الموساوي: حرف السك النقدي في العهدين المريني والسعدي، مجلة أمل،ع٧، ١٩٩٦،ص٣٤٠.

تنوعت حسب تعدد المراحل التي مرت منها صناعة النقود.

.المـــواد: يقصد بها المواد الأولية التي تدخل في صناعة النقود. وهي متنوعة في مقدمتها المعادن سواء الذهب الذي يدفع للصنعة حليا و تبرا، أم الفضة خامة و مفروغة و مسبوكة حليا، أم النحاس الذي يضاف إلى أحد المعدنين السابقين عند السك بأقدار معلومة، أو يستعمل مع الرصاص في تخليصهما من الشوائب،إضافة إلى الكبريت المستعمل في التنظيف والغسل، والملح الذي تعددت استعمالاته، وتحتاج صناعة السكة أيضا لمواد صخرية مثل مسحوق الآجر الذي يستعمل في الشحيرة[1] مخلوطا بالرمل ومواد أخرى، والحطب والفحم اللذان توقد بهما الأفران، إضافة إلى الشب[2]، والصابون المعتمد في الغسل والتنظيف والشمع في اختبار أوزان النقود وجودتها[3]، كما كان يتم الاختبار أيضا بالعيار الذي عادة ما صنع من دهن الجوز العفن أو من مواد أخرى[4].

.الأدوات: تطلبت صناعة النقود أدوات معظمها آلات بسيطة فقد احتوت دار السكة على أفران تستعمل في سبك المعدن وتخليصه من الشوائب أو في مراحل أخرى من التصنيع. وكانت أداة الكير معتمدة في إيقاد وتوهيج نار الأفران[5]، وهي بسيطة في صنعها. كما احتاجت عمليات السك إلى أواني معدنية مثل البوط[6]

---

(١) الشحيرة هي خليط من دقاق الآجر والرمل ونوع من الملح، وهي مواد تحيط بالمعدن وتدخل إلى الفرن لتوقد عليها النار في مرحلة من مراحل السك.

(٢) الحكيم: الدوحة، ص ص: ٥٦، ٨٧، ٩٣-٩٤.

(٣) كان هذا الاختبار يتم بصنع نماذج معينة من الشمع توزن بها النقود وتختبر جودة المعدن فيها.

(٤) الحكيم: المصدر السابق، ص ص: ٦١، ٧٩.

(٥)نفسه، ص ص: ٤٨، ٥٢.

(٦) البوط هو إناء حديدي لوضع وسطه المعدن لسبكه.

المستعمل في إذابة المعدن داخل الفرن، والمراط[١] الذي يفرغ فيه المعدن الذائب . أما الأواني غير المعدنية فمنها الكوجة أو الكوجل[٢] المصنوعة من مادتي الجبص والعظم اعتُمدت أيضا في تذويب المعدن، وأواني فخارية كالقدور التي توضع فيها كميات من المعدن تُدخل إلى الأفران والشقوف التي تفرغ فيها كميات المعدن بعد إخراجها من الأفران[٣]. واعتمد السكاكون على أدوات مصنوعة من المعادن أخرى كاللقاقيط أو الكماشات المستخدمة في القبض والقلع، والمطارق في الطرق، وزبرات الحديد في الضرب، والأمقاص في القطع، والمباريد في السحل، والمهاريس في دق وسحق المعدن، والغرابيل في تصفية مسحوقه[٤]. وكانت المعادن والنقود التي تصنع تختبر جودتها بالعيار الذي هو نوع من الحجر يعرف بالميلق يحك عليه المعدن[٥]، ويضم الجولق أو الصندوق الذي سبقت الإشارة إليه[٦]- يكون تحت يد الناظر- عدة أدوات منها الطابع الحديدي المنقوش الذي تضرب به القطع النقدية، والآلات والأقلام التي ينقش بها النقاش الطابع عند الحاجة إلى تغييره[٧]، والصنجات أو الصنج التي توزن بها المعادن والنقود. وقد وصف الحكيم في دوحته الميزان المستعمل بدار السكة بأنه «ذو قصبة مستقيمة وثقب مسمار القبة أسفل اللسان ...ويحتوي على لسان يتحقق من سلامة وسطه حتى يكون الرجحان .ويكون للقبة

---

(١) المراط إناء معدني تفرغ فيه مادة المعدن المذابة وهو في شكل إطارات ذات أبعاد محددة تتصلب فيها الكمية المعدنية المذابة فتتحول إلى قطع وسبائك.

(٢) الكوجة أو الكوجل: إناء صنع من العظم والجبص المسحوقين، يستعمل أساسا في تذويب الفضة.

(٣) الدوحة المشتبكة ص ص: ٨٦-٨٨.

(٤) نفسه، ص ص: ٥٥-٥٦، ٨٦، ٨٨، ٩٢.

(٥) نفسه، ص ص: ٤٨، ٥٢.

(٦)- العودة إلى ص:٤١-٤٢ في هذا المبحث.

(٧)- ابن خلدون: المقدمة، ص ص: ٢٢٦، ٢٦١؛ الحكيم: الدوحة، ص ص: ٧٢-٧٣.

علاقة قوية تتعلق بها عند الوزن في قائم يثبث بإلقافه بالحجارة ،وهو عمود من خشب قد أخرج منه علو يعلق فيه الميزان، تكون كفتا هذا الميزان نصفي كرة مبسوطتين وأخياطهما من حرير خز إن أمكن ،ويختبر قبل إعداده للوزن»[1]، ولذلك فأداة الميزان تكونت من عدة أجزاء مثلتها أساسا الكفتان اللتان توضع فيهما الصنج والموزون. وقد روعي في صناعة الموازين -من خلال ماورد في النص-الاحتراز والتحري بعدم النقص أو الزيادة من وفي الشئ المعد للوزن.

- مراحل الصنع وتقنياتـه:

تفيد مصادر وأبحاث [2] في التعرف على المراحل المتبعة في سك النقود، والتي يمكن تحديدها في ثلاثة هي السبك والتخليص ثم المد والقطع فالنقش والطبع.

السبك والتخليـص:

تتداخل هاتان العمليتان لذلك تم تناولهما في مرحلة واحدة، فالسبك هو إذابة المعدن تمهيدا لتحويله إلى نقود، ولايشرع السكاكون فيه إلا بعد تخليص المعدن المراد تذويبه مما علق به من شوائب حتى يصبح خالصا، و تتم عمليات السبك عدة مرات إذ تكون في البداية بهدف إزالة الشوائب، وفي الأخير بهدف صناعة السبائك بأبعاد معلومة في السمك والطول والعرض. وتعددت تقنيات التخليص إذ يعتبر السبك أحدها، وتكون عملية التخليص هذه متجاوزة إذا كان الذهب والفضة المدفوعين

(١) الحكيم: الدوحة، ص ص: ٧٦، ٨٠، ٨١.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ص: ٢٢٦، ٢٦١؛ بنعبد الله،عبدالعزيز: معطيات الحضارة المغربية، دار نشر المعرفة ، مطبعة المعارف الجديدة ،الطبعة الرابعة، ٢٠٠٢ ، الرباط ، ج٢، ص: ٨٦ ،

للسك خالصين، وفي هذه الحالة يشرع السكاكون في السبك بعد اختبار الجودة من طرف الناظر. أما إذا كانت المعادن المدفوعة تحتوي على شوائب فيتم تخليصها منها بطرق متعددة، أولاها أن التخليص يكون بسيطا إن كانت الشوائب قليلة وعالقة بوجه المعدن فيكون الغسل والحمي بالنار مناسبين، وثانيها إذا كانت الشوائب مخلوطة بالمعدن يتم التخليص بإضافة نوع من الأحجار إلى القطع المعدنية مما يساعد في جذب الذهب والفضة وعزلهما عن الشوائب[١]، وفي الطريقتين السابقتين يكون السكاكون في غنى عن التخليص بالسبك الذي يعتمد حين يكون التخلص من الشوائب ليس بالأمر الهين، وعادة ما يتم التخليص في هذه الحالة ،وهي الثالثة،بالسبك عن طريق إذابة المعدن في الكوجل أو باستعمال فرن الشحيرة أو باستعمال الزئبق[٢].

وتكون النار المعتمدة في التخليص بالطرق الثلاثة الآنفة الذكر بأقدار معلومة لا نقص فيها ولا زيادة تجنبا للإضرار بجودة المعدن الذي يتم اختباره بعد عملية التخليص فإن كان جيدا يشرع في تحويله إلى سبائك بغرض السك وإن كان مشوبا أعيد تخليصه بالسبك مرة أخرى.

ويتسلم السكاكون من الناظر المعدن بعد تخليصه، ليتم بعد ذلك تسجيل الشاهدين لوزنه والنقود المطلوب سكها والأجرة وأوصاف الدافع -وهو الصراف- والقابض- وهو السكاك-. فيبدأ هذا الأخير في عملية تحويل المعدن إلى سبائك، فإنْ كان المعدن ذهبا في شكل تبر يتم دقه في مهراس ثم يغربل، فيؤخذ الذي خرج من الغربال، فيزبَّقُ مما يُمَكِّن من جمع الذهب وطرح ما دونه، ثم توقد

(١) الدوحة المشبكة، ص ص: ٥٠-٥١، ٥٥.

(٢) العجلاوي: المرجع السابق، ص ص: ٢٦-٢٧؛ الحكيم : الدوحة المشبكة، ص ص: ٨٦-٩٠.

عليه النار لتخلص الذهب من الزئبق. بعد ذلك يخلط الذي خلص منه مع الذي علا الغربال، فيوضع في بوط وتوقد عليه النار، وقد يضاف إليه تنكار[١] لتسهيل سبكه. ويفرغ المعدن بعد السبك من البوط في المراط بعد حفظ وزنه، وذلك هو السبك الأول.

أما السبك الثاني فيتم بأخذ الصفائح التي تصلبت في المراط وترقيقها حتى تعتدل ثم توضع في شقف من فخار مدهون تجنبا لتسرب المعدن فيه، ثم تبنى فوقه طبقات من الصفائح مفصولة بالشحيرة[٢]، ويبلل الكل بالماء ويغطى السطح العلوي بشحيرة معجونة فتوقد عليها النار لوقت معلوم. وبعد إخراج الشحيرة من الفرن تنفض الصفائح ثم تغسل وتجمع كومة في شكل كرة وتوزن ليعلم ما نقص منها ويضبط، فتوضع مرة أخرى في بوط وتسبك وتصب في المراط فتحول إلى سبائك بعد التصلب. ويتم اختبار جودتها من طرف الناظر بضرب صفيحة على زبرة حديدية، ثم يضبط العيار بحك الصفيحة على الميلق ومقارنتها بحك الإمام ووضع محلول العيار فوقهما. فإن كان المعدن جيدا أصبح جاهزا للمرحلة الموالية وهي المد والقطع،وإن كان العكس رُدَّ ليسبك ويخلص من جديد[٣].

تلك كانت طريقة سبك التبر، أما إذا كان الذهب حليا فإنه يسبك بطريقة فرن الشحيرة بعد التأكد من جودته، بنفس التقنيات السابقة دون الحاجة إلى الدق والغربلة والسبك الأول في البوط[٤].

---

(١) التنكار هو نوع من الملح يسهم في تليين المعدن وسهولة سبكه.

(٢) سبق توضيح الشحيرة في هامش سابق من هذا المبحث.

(٣) الدوحة المشبكة، ص ص: ٨٦-٨٩.

(٤) نفسه، ص: ٨٩.

وبالنسبة للفضة فسبكها يكون عاديا في البوط ثم تفرغ في المراط بعد التأكد من خلوصها من الشوائب[١].

ويتضح مما ورد سابقا أن سبك المعدن يعد أساسيا سواء بقصد التخليص من الشوائب أو بقصد تحويل المعدن إلى صفائح تمهيدا لمدها وقطعها.

المد والقطع:

يفيد المد في تحويل السبائك إلى صفائح مستوية مضبوطة الأبعاد، أما القطْع والذي ينعت أيضا بالتكريم[٢] وعن طريقه تحول الصفائح المعدنية الممددة إلى قطع مدورة إذا كانت دنانير ومربعة إذا كانت دراهم.

ويتم المد بتسلم المدَّادين سبائك الذهب أو الفضة خالصة، فتتم إزالة ما علق بها من أوساخ أو غيرها بحميها على النار، ثم تُريَّش وتسوَّى بالمطرقة ثم تحمى مرة أخرى على النار إلى أن تتوهج مرات متتالية حتى تصبح سهلة القطع[٣].

وبعد الفراغ من المد يتم الشروع في قطع السبائك وحدات ذات أشكال محددة، ثم تجمع القطع وتضرب كل اثنتين أو ثلاثة منها على حِدَة. وتحدَّقُ حتى تصبح متقنة، ثم يتم حميها في النار، وتوضع في صناديق بأعداد جد محدودة لمرات متتالية مما يساعد على اعتدالها ثم تشبب بعد إخراجها من الصناديق فتسلم للناظر كي يزنها ويتحقق من اعتدال أطرافها ثم يختبر جودتها قبل دفعها للطبع في حين يُرَد ما رفض

(١) نفسه، ص ص: ٨٩-٩٠.

(٢) نفسه، ص: ٩١.

(٣) نفسه، ص ص: ٩١-٩٢.

منها حتى تكون جيدة ومتقنة[١].

النقش والطبع:

يدل النقش على الخطوط التي يختص الفتاح[٢] في وضعها على الطوابع التي تضرب بها النقود . لذلك فعمله أساسي لكنه غير مسترسل مثل أعمال السك الأخرى. حيث يقوم بخط رسوم وكتابات عند حاجة دار السكة إليها. أما الطبع فهو ضرب الطابع على وجهي كل قطعة نقدية.

كان النقاش أو الفتاح عادة ما يمتلك صنعة تتميز بإتقانه للخط والتفنن والمهارة في وضعه على الطابع الذي يصنعه له الحداد بدار السكة. ونظرا لأهمية حرفة الفتاح مُنِعَ عليه الاتصال بالمتهمين بالغش والتدليس في النقود، تجنبا لانتقال معلومات وتقنيات الطوابع إليهم. كما كان لا يؤذن له بتغيير شيء من الكلمات والرسوم الموضوعة على أي طابع إلا بإذن من السلطان بوساطة الناظر، لكون الطابع يمثل علامة من علامات الدولة، وقد كان نقش الكلمات والرسوم على الطابع يتم بطريقة مقلوبه[٣] كي توضع الكلمات المطبوعة على النقود سليمة وصحيحة بعد ضرب الطابع عليها.

وتغلب على النقوش التي حملتها النقود المرينية الكلمات وتغيب فيها التماثيل والرسوم لأمر شرعي، ومن أهم العبارات الدينية المنقوشة «لا غالب إلا الله»، أما السياسية فتمثلها أسماء السلاطين على النقود على الأقل منذ عهد أبي سعيد عثمان[٤].

---

(١) العجلاوي: حرف السك النقدي، ص ص: ٢٩-٣٠.

(٢) الفتاح هو النقاش الذي يصنع خطوط الطابع الذي تضرب به النقود.

(٣) الدوحة المشتبكة، ص ص: ٧٢-٧٣؛ ابن خلدون: المقدمة، ص: ٢٢٦.

(٤) التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج١، ص: ١٢٧.

وقد تكون النقود المرينية محتوية على معلومات تاريخية مثل تاريخ السك واسم دار السكة أو المدينة التي ضربت بها النقود. وجلي أن تكون النقوش الموضوعة على الدنانير مختلفة عن تلك التي وضعت فوق الدراهم، والأمر نفسه بالنسبة لأجزاء الدنانير والدراهم وذلك تمييزا لقيمة كل نوع منها.

وأوضح ابن خلدون بعض تقنيات الطبع حين ذكر بأن الطباع يضع الطابع على القطعة النقدية بطريقة مضبوطة ومقدرة ثم يضرب عليه بالمطرقة فتخرج النقوش مرسومة على النقد ظاهرة مستقيمة لكن الضرب يتم على جهة واحدة عدة مرات مع تدوير النقد الموضوع عليه الطابع. ونفس الشيء يتم على الوجه الآخر للنقد[١].

وكانت عملية طبع القطع النقدية تنجز بمعاينة الشاهدين. وبعد الطبع تتم مراقبة الناظر لها، الذي يَردُّ القطع غير المضبوطة الطبع كالتي يكون فيها الطابع خارجا عن دائرة الدينار أو عن أزياق[٢] الدرهم كي يعاد سبكها. فقد كان حرز الدينار والدرهم[٣] أن تكون دائرة الطابع متوسطة للقطعة لا تصل إلى أطرافها، وفي حالة رد القطع تقرض[٤] إشارة إلى الأمر بسبكها مرة أخرى، ثم مدها وقطعها وطبعها.

بعد طبع النقود ومراقبتها من طرف الناظر تحمى بالنار قصد إزالة ما علق بها من مادة الحديد أثناء الطبع، ثم تشبب وتنشف فتدفع للناظر الذي يزنها ويأمر

---

(١) ابن خلدون: المصدر السابق، ص: ٢٦١؛ الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص: ٩٣، ويقصد بالحرز صحة النقد.

(٢) يقصد بالأزياق الأطراف الأربع للدرهم.

(٣) المقصود بالحرز الجيد من الدينار والدرهم.

(٤) الحكيم: المصدر السابق، ص ص: ٩٢-٩٣.

الشاهدين بضبط الوزن الذي أرجعه السكاك ومقارنته بالوزن الذي قبضه في البداية. ويتم جمع الحساب على رأس كل شهر فيطالب السكاك بما بقي في ذمته من وزن وإلا يخصم من أجرته[1]. فقد كانت المعادن المدفوعة من طرف الصراف ترجع له بعينها مطبوعة[2]. إذ كانت أشغال صراف معين لا تخلط مع أشغال غيره من الصرافين حفاظا على الأمانة وصيانة للسكة وحقوق الصرافين والسكاكين والدولة. وذلك تحت مسؤولية الناظر وبمساعدة من الشاهدين.

تميزت صناعة النقود في الفترة المدروسة بكونها النشاط الذي كان الناظر أو الأمين المسؤول عنه متقنا للصنعة، عارفا بأسرارها حتى يتمكن من أداء الوظيفة المنوطة به، ومنها تجنب الغش والتزييف في ضرب النقود الرائجة في الأسواق وتداولها بين الناس، وكان الملوك يتدخلون عندما يستفحل أمر الغش أو تتراجع مداخيل دار السكة. وذلك ما تم في طور قوة الدولة المرينية، وما لم يتم أو تم بدرجة أقل في الفترات التي تلت ذلك الطور سواء عند المرينيين أو عند من تبعهم من ملوك بني وطاس.

(١) العجلاوي: المرجع السابق، ص: ٣٣؛ الحكيم: المصدر السابق، ص ص: ٥٧، ٧١.

(٢) الحكيم: المصدر السابق، ص: ٧٧.

المبحث الثالث

الأشغال العامة والأعمال العلمية والفنية

تتمثل الأشغال العامة المنجزة بمدينة فاس في الفترة المرينية الوطاسية في تهييء شبكة الطرق والشوارع ودعمها، ومد القناطر والجسور، وجلب المياه عن طريق إنشاء تجهيزات مائية –هيدروليكية– تكمن في القنوات الاصطناعية والآبار والسقايات، وتهييئ فضاءات خضراء بغرس البساتين والحدائق والجنان التي كان بعضها منتزهات للخاصة والعامة. وأشرف سلاطين الدولة –خاصة المرينيون منهم– على القيام بأعمال دقيقة كانت تعرف عند المسلمين بالحِيَل الهندسية التي تُميزها الدقة والتركيب في الصناعة، والخبرة والمعرفة لدى صانعيها، مما مكن من إنشاء الناعورات أو الدواليب وهي آلات مهمة للتزود بالمياه، إضافة إلى صنع نموذج مصغر لمدينة جَبل الفتح داخل قصر فاس الجديد يمثل تعبيرا عن الاهتمام المريني ببلاد الأندلس وعن الفنية التي عبر بها صانعوه عما احتواه الموقع من أسوار وأحياء ومرافق جُسِّدت بشكل دقيق. وتم حشر الصانعين المحليين والأجانب في إنجاز الأشغال والأعمال المذكورة سيما الدقيقة منها التي تفَوَّق فيها العنصر الأندلسي الذي أفاد المرينيين بعد احتكاكهم ببلاد الأندلس، واطلاعهم على تميزها في الصناعات المركبة. وكان للدولة تمويل معظم مشاريع الأشغال والأعمال المنجزة بتوفير المواد والأدوات، واستئجار الأطر الخبيرة واليد الصانعة والعاملة.

المطلب الأول

الأشغال العامة

تمت هذه الأشغال بمجال ومحيط المدينة وهي تجهيزات حققت للسكان وأنشطتهم وسائل المرور والعبورعبرها والتزود بالمياه بواسطتها .وتكونت من الطرق والقناطر والقنوات المائية والسقايات و البساتين وغيرها.

* **الشوارع والطرق:**

هي مسالك تخترق النسيج الحضري يتنقل عبرها المارة القاطنون بالمدينة والزائرون لها، وتسلكها الدواب التي تحمل الأمتعة والبضائع.وقد أُنجزت في الفترة المدروسة بفاس شوارع وطرق كثيرة أهمها شُيِّد بفاس الجديد عند تأسيسه، مثل الشارع الكبير الذي يقع بين بابين رئيسين هما: باب عيون صنهاجة وباب القنطرة[1]، إضافة إلى عدة شوارع أخرى وطرق تضيق حتى تتحول إلى دروب داخل الأحياء السكنية.

وبالنظر إلى بنية شوارع وطرق فاس الجديد المنجزة في الفترة المرينية يمكن القول بأنها تتشابه مع بنية نظيراتها في فاس العتيق، وإن كانت بنية شوارع وطرق فاس العتيق أقوى وأمتن، ويعزى هذا الأمر إلى أن الفئات الاجتماعية التي كانت تقطن بمعظم مجال فاس الجديد تكونت من فرق عسكرية استقرت مؤقتا بفاس، وكان أفرادها دائمي التنقل في إطار الحملات التي نظمتها الدولة خارج فاس، أما

(١) ابن الأحمر،إسماعيل : روضة النسرين، في دولة بني مرين، تحقيق : عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط،، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص: ٢٩.

حي اليهود الذي لم يُعمّر إلاّ في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، كان قد أنشئ بمعزل عن فاس الجديد باعتباره حيا خاصا، والأمر نفسه بالنسبة للقصر السلطاني المحاط بالأسوار العالية المميَّزبأبواب خاصة تجعله في معزل عن الأحياء الأخرى.

كيفما كان الحال فقد أنجزت شوارع وطرق بِرَبَض النصارى -الحي العسكري-، عند تأسيس فاس الجديد من طرف أبي يعقوب يوسف منذ سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٦م، وبتنفيذ من الصناع والحرفيين المختصين في الهندسة والتخطيط والبناء، الذين رسموا المحاور التي تمر منها الشوارع والطرق المذكورة. وكانت أنواع الصخور والأتربة مواد أساسية في إنشائها، ويعتبر الشارع الكبير أهم محاور فاس الجديد الطرقية؛ تميز بالاتساع امتدت معه الدكاكين والأسواق على طول جانبيه ، وعلى طرفيه بابين كبيرين. وتضيق الطرق كلما تم التوغل داخل الأحياء لتتحول إلى أزقة ودروب يكون بعضها متصلا بشبكة الطرق من جهة واحدة فحسب دون غيرها مراعاة لحرمة المساكن وساكنيها.

وحي اليهود يخترقه شارع رئيسي ينحصر بين بابين، تمتد على جانبيه محلات تجارية وحرفية، وتنتشر في بقية أجزاء الحي طرق وأزقة ودروب تتسع أو تضيق حسب كثافة الدور والسكان، ولم تختلف مواد وتقنيات إنشاء طرق وشوارع هذا الحي المنجزة من لدن ساكنيه وبتفويض من الدولة عما أنجزت به في ربض النصارى.

أما الحي السلطاني فقد نال أهمية متميزة بفضل شوارعه وطرقاته التي ربطت وحداته السكنية والقصر أهمها، وموصلة بينه وبين محيطه الخارجي، كما أنشئت طرق تصل بين فاس الجديد والعتيق.

ودعم المرينيون والوطاسيون شبكة الطرق بفاس العتيق وذلك بتجديدهم لما تعرض منها للتدميرأو التخريب: كشارع العطارين بعد تعرض سوقه لحريق سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م، وشارع الصباغين بعد تخريبه بالسيل الذي جرف دكاكينه والدور المجاورة له[1].. وبإنشاء شوارع وطرق جديدة مسايرة للتوسع الذي كانت تشهده المدينة القديمة مع مرور الفترات.

*الجسور والقناطر:

الجسر هو البناء الذي يوضع فوق المجرى المائي يربط بين ضفتيه، وعادة ما كانت مواد البناء فيه تتكون من الآجر و الحجر و الخشب ، ويختلف حجمه حسب اتساع المجرى، لذلك يتطلب بناء متينا قادرا على حمل الأشخاص والدواب وما تحمله من بضائع وأمتعة من جهة، ومقاومة جريان المياه وما يحدثه من رطوبة تؤدي إلى تآكل البناء من جهة أخرى. أما القنطرة فهي الجزء العلوي من الجسر الذي يربط جانبيه فقط .و لم يميز أهل فاس بين الجسر والقنطرة، فكانت المنشآت المشيدة من هذا القبيل تنعت تارة بالقناطر وتارة أخرى بالجسور. وقد بنيت أهمها على الوديان التي تعبر المدينة وخاصة وادي الجواهر ووادي الزيتون اللذين ينعتان عند دخولهما أسوار المدينة العتيقة بوادي فاس ووادي مصمودة.

وعرفت فاس في الفترة المدروسة إنشاء العديد من القناطر والجسور في نقط أساسية على الوديان المذكورة، وتمت إعادة بناء أخرى تهدمت وتخربت نتيجة كوارث طبيعية مثل الفيضانات ، كما شهد محيط فاس بناء بعض القناطر أيضا على

(١) الوزان، الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية : محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ج١، ص: ١٩٣، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤١٤.

الوديان الفاصلة بين مدينتي فاس ومكناسة.

فقد أنشأ السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني عند تأسيس فاس الجديد عدة قناطر من بينها التي تحمل أحد أبواب هذه المدينة المسمى باب القنطرة ، يمر عبرها وادي الجواهر وتنطلق منها عملية توزيع المياه على أحياء ومرافق المدينة بقسميها الجديد والعتيق، ولازالت معالم هذه القنطرة بادية للعيان رغم ما عرفه موقعها من تغييرات، وهي واقعة عند باب مولاي عبد الله الحالي. كما أنشئت بفاس الجديد قناطر أخرى لكنها تقل أهمية عن القنطرة المذكورة.

وتشَيَّدَت في عهد يعقوب بن عبد الحق كذلك قناطر خارج مدينة فاس أبرزها قنطرتي وادي النجا وماريز[1]، أتمم بناءالأولى خلفه يوسف بن يعقوب، وجُدِّدت في عهد السلطان أبي الحسن المريني نعتتها المصادر بقنطرة بني بسيل نسبة إلى التجمع السكني القريب من القنطرة. وأنجزت من طرف نفس السلطان -أبو الحسن- قنطرة وادي ردات خارج فاس[2].

وفي عهدي أبي سعيد وابنه أبي الحسن مُدَّت مجموعة من القناطر بفاس فقد بنيت في عهد الأول قناطر على غدير حمص في إطار التوسع العمراني الذي عرفته فاس الجديد، وقنطرتا باب السلسلة والصباغين على الوادي الفاصل بين العدوتين بفاس القديم سنتي ٧٢٥-٧٢٦هـ/ ١٣٢٥-١٣٢٦م، مع ماتم أثناء ذلك من تجديد

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب: ٤٠٦.

(٢) ابن الأحمر: روضة النسرين، ص٢٩ ، ذكر أن باب القنطرة عرف في عهده بباب الوادي؛ ابن أبي زرع،علي : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والنشر والوراقة، الرباط، ١٩٧٢،ص: ٩٠؛ المنوني: حضارة بني مرين، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ١٩؛ الناصري: الاستقصا، ج٣، ص: ٨٩؛ Massignon : Le Maroc dans les premières années du 16ème, p : 217.

ما دمرته مياه الفيضانات. كما تم في عهد أبي سعيد أيضا تجديد وبناء أخرى هي قناطر أبي طوبى وكهف الوقادين وأبي برقوقة. هذه الأخيرة التي تقع على وادي الرصيف تم تجديدها أيضا من قبل الأمير أحمد الوطاسي. وتمثلت إضافة أبي الحسن بفاس العتيق في بناء قنطرتي الوادي والرصيف[1].

تلك إذن أهم القناطر والجسور التي أنشئت في العهد المريني –الوطاسي بفاس، نشطت أوراشها عند تأسيس فاس الجديد وتوسيعه، وبعد الهدم الذي أحدثته الفيضانات، وفي فترات الاستقرار وانتعاش اقتصاد الدولة. ولم تخل مرحلة ضعف الدولة من إنجاز القناطر، لكنها كانت بسيطة أو تدخل في إطار تجديد وإصلاح القناطر التي كانت قائمة.

والدولة في شخص السلطان هي التي مولت أعمال بناء القناطر، بتوفير المواد الأولية والأدوات اللازمة لذلك والمتخصصين في الإنشاء، في حين كانت اليد العاملة في تلك الأعمال تقدم خدماتها بصفة تطوعية تحت إشراف شخص يكلفه السلطان تنتهي مهمته بانتهاء العمل في الورش الذي كلف بإنجازه. وفيما يلي جدول لأهم القناطر المشيدة في العصرين المريني والوطاسي:

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج١، ص ص: ٤٩-٥٠؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤١٤؛ ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤١٨.

جدول: أهم القناطر المرينية بفاس:

القنطرة / الجسر	الموقع	تاريخ الإنجاز
قنطرة بفاس الجديد	باب القنطرة (قرب باب السبع)	سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م
قنطرة باب السلسلة (الطرافين)	عن يسار الداخل من باب سيدي العواد	أسسها أبو سعيد عثمان سنة ٧٢٥-٧٢٦هـ/ ١٣٢٥-١٣٢٦م
قنطرة الصباغين (ابن زكون)	عن يمين الخارج من الصباغين	٧٢٥-٧٢٦هـ/ ١٣٢٥-١٣٢٦م
كهف الوقادين (بين المدن)	تعرف في الطريق المار من المشاطين إلى حي بين المدن	عهد أبي سعيد عثمان
قنطرة الرصيف (ابن أبي برقوقة)	تهدمت حديثا (مدخل الرصيف حاليا)	عهد السلطان أبي الحسن المريني
قنطرة الوادي	واقعة على الوادي الفاصل بين العدوتين	عهد السلطان أبي الحسن المريني

*الحدائق والجنات:

تنعت أيضا بالبساتين والروضات وهي فضاءات خضراء بأشجارها وأعشابها، ورطبة بالمياه الجارية فيها. وتكمن أهميتها في تنزه سكان فاس بخاصتهم وعامتهم فيها، فضلا عن الاقتيات بثمارها، بل إن الزائرين لمدينة فاس كانوا أيضا يتمتعون بجماليتها ويتشوقون لرؤيتها عند مغادرتهم المدينة، و قد نظم أحدهم[1] فيها.

يا فاس حيّا الله أرضَكِ من ثَـرا ❁❁❁ وسقاكِ من صوْبِ الغَمامِ المُسبلِ
يا جنة الخلدِالتي أربتْ علـى ❁❁❁ عدنٍ بمنظرها البهيِّ الأجمَـلِ
غُرفٌ على غرفٍ ويجري تحتهـا ❁❁❁ ما ألذّ من الرّحيقِ السلسـلِ
وبساتينُ من سندُس قد زُخرِفـت ❁❁❁ بجداولَ كالأيّم أو كالفيصـلِ

وقد أولى مسؤولو الدولة أهمية لتهييء الحدائق والجنات، بغرس الأشجار ومد القنوات المائية والطرقات وبناء الناعورات وغير ذلك. وقد احتوت فاس الجديد ومحيطها على أهم المنتزهات. فقد كان روض المصارة جميلا بالأشجار التي غرست به والمياه الجارية فيه. وقد عين السلطان المريني يوسف بن يعقوب عاملا للنظر في تجهيزه سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٨م[2]. واهتم السلاطين في الفترات اللاحقة أيضا بهذا الروض فتوسعت مساحته بعد تعيين السلطان أبي الحسن المريني لمحمد بن حسين بن الخلوف الصنهاجي الحميري عاملا عليه، حيث أشرف على غرس زيتون به في منطقة غدير حمص بجانب الوادي. وبدوره وسع أبو عنان هذا الروض ودعم موارده المائية[3].

(١) هو الفقيه القاضي محمد المغيلي نزيل آزمور حسب ما ورد عند ابن القاضي: الجذوة، ١، ص: ٣١٥.
(٢) ابن أبي زرع: الأنيس، ص: ٤٠٧؛ ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٤٨.
(٣) ابن الأحمر وآخرون: المصدر السابق، نفس الصفحة؛ النميري: فيض العباب، ص: ١٧٥.

وضمت فاس الجديد فضاءات خضراء أخرى كالذي وجد بقرب القصر السلطاني ، تم فيه إنشاء بستان آمنة في عهد أبي عنان. وهيأ سلاطين بني مرين أيضا بساتين خارج فاس الجديد كروض الغزلان بدار ادبيبغ والحدائق التي تقع بين بابي الحديد والجديد بفاس العتيق[١].

واحتوى المحيط الذي يلي باب بوجلود وباب الشريعة على بساتين، لعل المرينيون ساهموا في تدعيمها وتجهيزها خصوصا في الفترة التي سبقت انتقال مقر السلطة إلى فاس الجديد. وقد عرفت البساتين التي توجد أمام بوجلود آنذاك ببساتين القصر في حين امتد روض يعرف بخندق النمر خارج باب الشريعة[٢].

وإذا كانت البساتين المذكورة سابقا قد مثلت متنزهات خاصة لسلاطين الدولة وحاشيتهم، فإن بعضها كان متنزهات لعامة الناس مفضلا لديهم خصوصا روض المصارة الذي توافد عليه بكثرة سكان أحياء فاس الجديد والعتيق. وظل هذا الروض يثير اهتمام الزوار لعهد طويل . ويرجح أن يكون جنان السبيل الحالي قد مثل جزءا مهما منه .

* المد بالمياه:

تم المد أو التزود بالماء بتقنيات عدة تتمثل في بناء ناعورات أو دواليب على وادي فاس، وإنشاء قنوات مكشوفة ومطمورة تمر فيها المياه إلى الحدائق والبساتين والقصور والدور وإلى السقايات التي بنيت في عدة نقط من شوارع وأزقة فاس العتيق خاصة وفاس الجديد بشكل محدود.

---

(١) Massignon : Le Maroc, PP : 230-231. ؛ ابن القاضي: الجذوة ج:١، ص: ٢٠٨؛ النميري: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) Massignon : Le Maroc, P : 235؛ ابن الأحمر وآخرون: المصدر السابق، ص: ٤٤.

الناعـورات:

نعتت أيضا بالنواعير أو الدواليب، وهي آلات لرفع المياه، وقد بنيت معظمها على وادي الجواهر الذي يجري بمحاذاة فاس الجديد.

وقد تطلب بناء الناعورات تقنيات هندسية دقيقة برع فيها العنصر الأندلسي، لذلك نشطت عمليات صنعها ونصبها بعد الاحتكاك المريني مع الأندلسيين في إطار الفتوحات والغزوات المرينية ببلاد الأندلس. وقد انطلقت ورشات صناعة الناعورات منذ عهد يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ) وتواصلت في عهد ابنه يوسف (٦٨٥-٧٠٦هـ)، وبلغت أوجها في عهد أبي عنان (٧٤٩-٧٥٩هـ) لتتراجع دون أن تتوقف نهائيا في فترات الدولة المتبقية.

وقد صنعت ونصبت أول ناعورة على وادي فاس (وادي الجواهر) بأمر من السلطان يعقوب، وبتنفيذ من طرف المهندس أبو عبد الله محمد بن الحاج الأندلسي الإشبيلي[1]، الذي نقل خبراته إلى المغرب أيضا في صناعة السفن وغيرها من الأندلس، وذلك بعد تقريبه من طرف السلطان المريني. وصنعت في عهد يوسف بن يعقوب ناعورات أخرى، فبين رجب ٦٨٥هـ وصفر ٦٨٦هـ تم بناء ناعورة كبرى على وادي فاس أيضا، وأخرى مماثلة على نفس الوادي في موضع قريب من قصر الدار البيضاء المشيَّد بدوره سنة ٦٨٦هـ، وبلغ قطر الناعورة الأخيرة ستة وعشرين مترا[2]، مما يعد دليلا على أهمية المواد والأدوات المستخدمة في بناء هاتين الناعورتين ودقة تقنيات صنعها، إذ طالت مدة الأولى وكبرت أبعاد الثانية. وارتفع عدد

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢، ص ص: ١٣٩-١٤١.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس، ص: ٤٠٧؛ النميري: فيض العباب، ص: ١٧٥؛ حركات: الحياة الاقتصادية في العهد المريني، مجلة كلية الآداب وع إ، الرباط، ع: ٥-٦، ١٩٧٩م، ص: ١٣٣.

الناعورات المصنوعة في عهد أبي عنان، حيث تجهزت ضاحية البلد الجديد بها بهدف مد الجنان المجاورة للقصر بمياه السقي. حيث ذكر النميري أن أبا عنان أضاف ناعورتين جديدتين تسببتا في تعطيل عمل الناعورتين الكبرى والصغرى المصنوعتين في عهد يوسف بن يعقوب[1]، وذلك نتيجة تراجع منسوب المياه، لقرب موقع ناعورتي أبي عنان من الناعورتين المعطلتين.

وشهد مطلع القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي صناعة نواعير جديدة بظاهر المدينة على وادي فاس من طرف مهندس إسباني تميزت تقنيات عمل إحداها بعدم التأثر بقوة الرياح، فكانت تدور ببطئ بمعدل دورة في كل ساعة[2].

لقد اعتمد صناع الناعورات على مواد أولية أبرزها الخشب إضافة إلى مواد ثانوية تمثلت في المعادن. وتطلبت هذه الصناعة أدوات وتقنيات توفرت لدى المهندسين المختصين أفادتهم في صناعتهم . ويُرجح أن تكون عمليات صنع الناعورات قد تمت في أماكن قريبة من المجرى المائي الذي نصبت عليه، كما من المحتمل كذلك أن تكون المرافق التابعة للقصر السلطاني قد احتضنت تلك العمليات خصوصا بالنسبة للناعورات ذات الحجم الكبير لما تتطلبه من وقت طويل في الإنجاز. ولعل تقنيات صنع الناعورات ذات الشكل الدائري كانت تبتدئ بصناعة كل جزء على حدة، ليتم بعد ذلك تركيب الأجزاء كليا ، فتصبح الناعورة ذات مركز ثابت ومحيط متحرك ينتهي بأكواب ترفع الماء من النهر لتصبه في القنوات الاصطناعية السطحية المعدة لصرف المياه. وكانت عمليات نصب الناعورات تجرى عن طريق تثبيتها في الجدران أو غيره إضافة إلى بناء أسوار تساهم في تجميع المياه

(١) النميري: المصدر السابق، ص ص ص: ١٧٦-١٧٧، ١٧٩-١٨٠.

(٢) الوزان: وصف إفريقيا، ١، ص: ٢٢٠.

حول كل ناعورة.

ولفتت الناعورات التي نصبت على وادي فاس أنظار المتوافدين على المدينة . فقد قال ابن الخطيب واصفا الناعورة المصنوعة في عهد يوسف بن يعقوب، والتي يحتمل أن يكون صانعها هو ابن الحاج الإشبيلي، مادام أنه استقر بفاس الجديد إلى أن وافته المنية به سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٥ م[١]. وهذا نظم ابن الخطيب[٢]:

وقوراء من قوس الغمام ابتغوا لهـا ... مثالا أداروها عليه بلا شـك
فبين الثريا والثرى سِرُّ جرمهـا ... وللفلك الدوار قد أصبحت تحكي
نصوغ لجين التبر في الروض دائمـا ... دراهم نور قد خلص من السبك
وترسل من شبهاتها ذا ذوابـة ... فتنفي استراق السمع عن حوزة الملك
تذكرت العهد الذي اخترعت بـه ... وحلت فما تنفك ساجعة تبكي

لكن الناعورة الكبرى التي قيل فيها هذا النظم تعطلت عند بناء ناعورات عنانية. و مع ذلك فإعادة تشغيلها يعد أمرا يحتمل الصواب إذا كان قد تم التحكم في جريان المياه، أو أن دورانها كان يتم مؤقتا في الفصل المطير الذي يرتفع فيه منسوب مياه الوادي.وعموما أصبحت فضاءات فاس الجديد والظاهر الفاصل بينه وبين فاس العتيق مجالا تنتشر فيه الدواليب، لدرجة أن أحد الناظمين العدول قال متحدثا عن سوق الخميس الذي كان يعمر بين المدينتين العتيقة والجديدة[٣].

(١) ابن القاضي: الجذوة ، ١، ص: ٢٨٨.

(٢) بوطالب، عبد الهادي: وزير غرناطة لسان الدين بن الخطيب السلماني، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠، ص: ٢٠٨.

(٣) ابن القاضي: المصدر السابق، ١، ص: ٢٤٥.

إذا أتيت الخميس افعل توابلـــه من الخميس وإتيان دولاب

القنوات المائية:

شهد مجال فاس الجديد بصفة خاصة إنشاء قنوات اصطناعية لمرور المياه، ساهمت في نقل المياه من مصادرها إلى الأحياء والمرافق والحدائق في تكامل مع بناء الناعورات. وقد مثلت المياه السطحية بوادي فاس مصادر رئيسية للتزود بالمياه، صنعت لها قنوات مكشوفة أو مطمورة أمر السلاطين بإنشائها[1] في فاس الجديد، وببعض محاور فاس العتيق كتلك التي تؤدي إلى السقايات. ولعل مادة الحجر المنجور اعتمدت في إنشاء القنوات المكشوفة، إذ ورد حديث عن أن هذه القنوات من الأنظمة التي كانت سائدة في مدن العالم الإسلامي ومنها مدينة فاس[2]. في حين أن القنوات المطمورة كانت تصنع من الفخار في الدور الصناعية الخاصة بذلك ،والتي تصنع قواديس تختلف أحجامها حسب كميات الماء التي تعبرها. وكانت تعد وسيلة مناسبة لنقل المياه إلى الدور والمنازل والقصور والمساجد والمدارس والسقايات وغيرها من المرافق. وشكلت القنوات المكشوفة أيضا وسيلة لنقل المياه لسقي البساتين. واستدعت عمليات مد القنوات المائية تقنيات هندسية ومعرفة بعلم المساحة وبشكل السطح. لذلك اعتمد صانعوها على أدوات للقياس والحفر والطمر والتبليط والبناء وغيرها. وقد وُصِف الصناع المتخصصون في المد بالمياه بالقنويين كانوا يستدعون من طرف السلطان لمباشرة أعمالهم التي عادة ما نشطت

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ٢٢٠، الذي تحدث عن مد المياه إلى فاس الجديد من الوادي بواسطة ناعورة تفرغها في قناة مكشوفة داخل السور؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٧٢.

(٢) هيل، دونالد: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة فؤاد أحمد باشا، عالم المعرفة، ع٣٠٥، ص ص: ٢٤١، ٢٤٢.

عند تشييد منشآت عمرانية بالمدينة[١]، كما حدث عند بناء فاس الجديد.

السقايات:

هي بنايات تنبع فيها المياه التي تجلب إليها من الآبار والعيون عبر القنوات الاصطناعية، وتنتشر عبر الشوارع والأزقة بهدف تزويد الناس والدواب بالمياه. وقد أولت الدولة المرينية عناية لبناء السقايات في إطار تعاليم الدين الإسلامي الحنيف الداعية إلى تزويد عابري السبيل بمياه الشرب[٢]. ولذلك احتوت مدينة فاس على عدد كبير من السقايات وصل إلى ستمائة يرجع عدد غير يسير منها للفترة المرينية الوطاسية. وكانت فترة حكم أبي الحسن المريني متميزة في إنشاء السقايات[٣]، فقد ذكر علي بن فرحون المديني وهو رحالة مشرقي: «ما مررت -في بلاد المغرب- بسقاية... التي يعسر فيها تناول المياه للشرب والوضوء فسألت عنها إلا وجدتها من إنشاء السلطان أبي الحسن رحمه الله»[٤].

وتحتوي السقايات على أحواض تتجمع فيها المياه المتدفقة في جدرانها. وتتميز واجهاتها بزخارف وضعت على الجبص والزليج والحجر والآجر... واختلفت أشكال وأحجام السقايات حسب موقعها وظروف تأسيسها. فكانت الموجودة على شوارع تغص بالمارة كبيرة الحجم، بديعة الشكل أهمها سقاية تعرف باسم أبي الحسن -نسبة إلى السلطان المؤسس- التي تتواجد على زقاق حلق النعام المعروف حاليا

(١) استدعى السلطان أبو الحسن المريني القنويين في جملة أرباب الصناعات قصد بناء منشأة عمرانية بتلمسان. وهو نفس الأمر الذي كان جاريا بفاس، ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤٤٨.

(٢) وزيري، يحيى: العمارة الإسلامية والبيئة، عالم المعرفة، ع٣٠٤، ٢٠٠٤، ص: ٤٠.

(٣) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص: ٤١٧.

(٤) المنوني: حضارة بني مرين، مذكرات، م٣، ص: ٢٥.

بالطالعة الصغرى. ولم تكن كل السقايات المشيدة بشوارع فاس من إنشاء السلاطين، بل كانت مجموعة منها من إنشاء الأوقاف كالتي تتواجد بقرب الجوامع والمساجد والمدارس والمارستان وغيرها، أو التي شيدت بعيدا عن المؤسسات الوقفية مثل سقاية برحبة الزبيب بنيت في إطار جلب الماء للقرويين[1].

(١) ابن أبي زرع: الأنيس، ص: ٦٦.

المطلب الثاني

الأعمال العلمية والفنية

رغم تخصص المدارس والجوامع وبعض المساجد في تقديم العلم، وما كان يرافق ذلك من الاهتمام بالأعمال المرتبطة به مثل الخط والزخرفة في الكتابة والتسفير وغيره، فإن القصر السلطاني احتضن بدوره أنشطة علمية أقبل عليها سلاطين الدولة، فاهتموا بالعلم وقربوا منهم العلماء، وكان ذلك مرفوقا بإنجاز الأعمال ذات الصبغة الحرفية. حيث كُتبت المصاحف والكتب، صُنعت لها ربعات متقنة، باعتماد عدة أدوات ووسائل وفرها الصانعون والحرفيون المتخصصون كالأقلام والمسطرات والأمدة والمحابر وغيرها. وفي عهد أبي عنان أنجز الحرفيون المختصون في الهندسة والبناء نموذجا مصغرا لمدينة جبل الفتح اعتبر من الأعمال الهندسية الدقيقة والنادرة.

- الأعمال العلمية والحرف المرتبطة بها:

تمثلت في صناعة أدوات الكتابة وموادها وخاصة الحبر، والأرضيات التي تمت عليها الكتابة إضافة إلى وسائل التسفير، أهمها الربعات.

١ - أدوات ومواد الكتابة:

كان جهاز من الكتاب يعمل بالقصر السلطاني مهمته الأساسية كتابة الرسائل والظهائر السلطانية وتوثيق ممتلكات الدولة والمصاريف والنفقات وغيرها. ومارس عدة أمراء وسلاطين الكتابة أيضا حيث نسخوا المصاحف القرآنية. واحتاجت هذه

الأعمال إلى صناعة وسائلها من مواد وأدوات وغيرها، منها :

.الـرق:

الرق مفرد للرقوق، يقصد به الجلد الذي مثَّل أرضية للكتابة في العصر الوسيط. وقد صنع رق خاص لسلاطين دولة بني مرين من جلد الغزال كتبت عليه نسخ المصاحف القرآنية في عهدي أبي يعقوب يوسف وأبي الحسن علي[1].

ولم يكن الرق هو الأرضية الوحيدة للكتابة، بل كان الورق أيضا وسيلة في ذلك تم الحصول عليه من حرفيين خاصين نشطوا في إنتاجه.

.المـداد:

تعددت أنواع المداد حسب طبيعة المواد التي كتب به عليها وقيمة المادة المكتوبة. فقد صنعت أمدة من نوع جيد يليق بمقام السلاطين وبقيمة المصاحف وكتب السيرة النبوية التي كتبت من قبلهم أو بأمر منهم. واعتُمدت المواد النباتية في صناعة المداد وأشرفها العطور من مسك وورد وزعفران شعري، وصنع الحبر أو المداد أيضا من قشور الجوز وعود السواك ومحلول الذهب الذي كتبت وزخرفت به المصاحف القرآنية بصفة أساسية[2].

---

(١) المنوني: الفقيه المنوني، أبحاث مختارة، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة المناهل، المغرب، ٢٠٠٠، ص: ٢٢٧، ٢٣٠؛ التازي، عبد الهادي: اكتشاف موقع الزاوية المتوكلية بظاهر مدينة فاس، مجلة آفاق للثقافة والتراث، عدد ٢٢-٢٣، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، إدارة البحث العلمي والنشاط الثقافي بمركز الماجد للثقافة والتراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ع٢٢، ص: ١٥٩.

(٢)- المنوني: المرجع لسابق، ص: ٢٢٤؛ وتاريخ الوراقة المغربية، صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، الطبعة الأولى، ١٩٩١، ص: ٦٢.

وقد تطورت صناعة المداد في فترة بني مرين. فبعدما تمت الكتابة في العصر الموحدي وصدر الدولة المرينية من دون مداد، أصبحت الكتابة على الرق أو الورق بالمداد الذي تطورت صناعته بتنوع ألوانه حيث ظهر اللونان الأزرق والأحمر فضلا عن اللون المذهب المائل إلى الصفرة. مما ساهم في انتعاش زخرفة الكتابات، إذ رسمت بعض الكلمات والحروف والنقط والفواصل بألوان مغايرة. لكن تلوين المداد سيزدهر بشكل واضح في الفترة السعدية بظهور تقنيات ومواد جديدة للحصول على الحبر[1].

.المحابـر:

عُرفت المحبرة في بلاد المغرب بالدواة، وهي وعاء يوضع فيه الحبر أو المداد المعتمد في الكتابة به. وقد صنعت الدواة في عصر بني مرين من مواد مناسبة لحفظ المداد وملاءمة جودتها وأهميتها لمكانة الكتاب والسلاطين، حيث كانت تزخرف محابر هؤلاء الأخيرين بكتابات منظومة، وتزوق بالتذهيب، ونورد نموذجين منها :

دواة السلطان أبي عنان التي كتبت عليها الأبيات التالية:

أنا دواة فـــارس ❁❁❁ أبي عنان المعتمـد

حَلَّفت من يكتب بـــي ❁❁❁ بالواحد الفرد الصمـد

أن لا يمد مـــدة ❁❁❁ في قطع رزق لأحـد

ورَدَّ أبو عنان حين تلى عليه ابن الخطيب هذه الأبيات قائلا: «لقد حلَّفتني، وإني بقسمي لها لبار إن شاء الله». وقد ذكر المقري في «أزهار الرياض» أنه شاهد في أيامه

(١) المنوني: أبحاث مختارة، ص ص: ٢٢٨، ٢٣٦-٢٣٧، تاريخ الوراقة، ص: ٦٢.

دواة عند أحد كتاب سلطان حضرة فاس تحمل البيتين الاخيرين، فاعتقد أنها هي دواة أبي عنان[١].

دواة السلطان أبي سالم: والتي حملت ستة أبيات من نظم أبي القاسم بن رضوان يدل مطلعها على توشيتها بالذهب وحسن صنعتها[٢]:

لَبِسْتُ محاسن الوشي البديع ❁❁❁ وفّقت بمنظري زهر الربيع

وساعدت السعود صنيع شكلي ❁❁❁ فتم به حسن الصنيع

وشهدت صناعة المحابر تحسنا مع توالي فترات الحكم المريني-الوطاسي حيث عُدَّت محابر ذات أشكال مستطيلة وتحمل عدة تجويفات هي أوعية للأمدة المتعددة الألوان[٣].

. الأقلام:

إذا كانت الدواة أداة لاحتواء المداد، فإن القلم أداة لرفعه منها والتخطيط به على الصحف. ولابن الخطيب بيتين منظومين يتحدث فيهما عن الأدوات الثلاث بأسلوب ولغة جميلين[٤]:

ما رأت عيني عجيبا ❁❁❁ كيراع في دواة

غائصا يستخرج الدر ❁❁❁ ببحر الظالمات

---

(١) المقري: أزهار الرياض، ج١، ص: ٤٠.

(٢) المنوني: تاريخ الوراقة، ص: ٥٤.

(٣) المنوني: أبحاث مختارة، ص: ٢٢٣.

(٤) ابن القاضي: الجذوة، ١، ص: ٣٠٨

فقد أطلق لفظ اليراع على القلم والدر على المداد.

وكانت المواد النباتية والمعدنية وسائل لصنع الأقلام بفاس. لكن النباتية منها كانت أكثر تداولا لتناسبها مع خفة وسرعة الكتابة. في حين اعتبرت الأقلام المعدنية الفضية والذهبية رمزية تعبر عن قيمة حامليها. ومثّل القصب وخشب الصندل مواد حولها الصانعون إلى أقلام بعمليات يدوية بسيطة. ومن الأقلام الرمزية الذي صنع للسلطان أبي سالم قلم فضي حمل بيتين منظومين من طرف أبي القاسم بن رضوان.

إذا شهدت بالنصر خطبة القنـــا فملكت أمر الفتح من غير ما شرط

كفى شاهدا أني بفضلك ناطـــق لساني مهما أفصحت ألسن الحظ

. أدوات أخرى:

تطلبت عمليات النسخ والتصحيح أدوات مثل المقارض والسكاكين.كانت تصحح بها النسخ المكتوبة على الرق والورق، اللذان صنعا بملمس خشن يسمح بإزالة الأخطاء بالسكاكين، ومما نظم في ذلك أبيات منها ما قاله ابن رضوان أيضا[1]:

أرى سيف ابراهيم بيني وبينـــــــه مناسبة عند اعتبار المناســـب

بشرت حروف الكتاب عند التباسهـا ويبشر حداه حروف الكتائـب

وفي هذا الكلام المنظوم حديث عن السكين ودوره في الكتابة .والإشارة واضحة إلى خدمة الناظم للسلطان أبي سالم المريني.

(١) المنوني: تاريخ الوراقة المغربية، ص: ٥٦.

واستعمل كتاب الدولة أيضا المسطرات التي توجه خطوط صحفهم، يراعى فيها التوازي واحترام القياس المناسب بين سطور الصفحة الواحدة. والأوصاف التي قيلت في هذه المسطرات توحي بتميزها عن المسطرات الحالية، حيث كانت تصنع من لوح الخشب وشكلها ذو زوايا أربع قائمة وطريقة استعمالها عند الكاتب تتمثل في وضعها على الكتاب ، ثم وضع خيوط فوقها ،وتوضع ورقة فوق تلك الخيوط ، ثم الضغط بقوة حتى ترتسم الخطوط في الورقة ، مما يساعد في توجيه الكاتب كي تكون كتابته منتظمة[1]، ولذلك فهذا النوع من المسطرات كان ذو حجم كبير يقارب أو يزيد عن حجم الورقة.

واحتاج الكتاب والخطاطون إلى المقلمات التي تُحفظ فيها الأدوات الأخرى للكتابة مثل الأقلام والمسطرات والمقارض والسكاكين وغيرها. فكان الجلد هو المادة المستعلمة في صنع المقلمات، واجهاتها الخارجية مزخرفة تزينها النقوش والخطوط وغير ذلك، وتحتوي كل منها على جهة خاصة بالأقلام والمسطرات وجهة أخرى خاصة بالمقارض والسكاكين. وقد تكون المقلمات معدة لحفظ الأقلام والمسطرات فقط.

واحتاجت أعمال الكتابة أيضا للمرملة ، وهي عبارة عن مسحوق يجفف به المداد المخطوط، يكون أحيانا مسحوقا من الرمل وأحيانا أخرى مسحوقا من الذهب عندما تكون الكتابات قرآنية أو سلطانية.

وتصقل الكتابات بمحلول الذهب بواسطة آلة تدعى المصقلة، مما يعطي للصحف والكتب المصقولة بها مظهرا متميزا[2].

---

(١) المنوني: أبحاث مختارة، ص: ٢٣٦.

(٢) نفسه، ص ص: ٢٢٣-٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٩.

وتم تحويل مادة الخشب أيضا إلى محمل الكتب ،كانت توضع فوقه المصاحف والكتب بقصد القراءة أو الكتابة، محمول بأرجل يتم جمعها حين الانتهاء من استعماله. ومن المحامل المصنوعة محمل للسلطان أبي سالم ابراهيم المريني صنعت له أرجل تتحول عند فتحها إلى بيت من نظم ابن رضوان أيضا[1]. مما يعد دليلا على تطور الإبداع عند الحرفيين الصانعين لمثل هذه الأداة.

٢- رسم الخط:

نهل الخط المغربي تقنياته من الفن المشرقي والأندلسي واتخذ خصوصيات محلية متميزة عنهما. فقد ذكر الأستاذ المنوني أن الخط المغربي تأثر بالفن الأندلسي أكثر من تأثره بنظيره المشرقي. وسرد خمسة أنواع منتشرة له بالمغرب منها الخط المجوهر الذي حررت به الرسائل والكتابات السلطانية، والذي كان أكثر الخطوط استعمالا لجماليته، والخط المبسوط الذي كانت ترسم به المصاحف القرآنية[2].

قرَّب الحكام منهم الخطاطين المحترفين الذين تعلموا حرفة الخط بفاس أو غيرها من المدن سواء داخل المغرب أو خارجه، إذ أن مدينة فاس المرينية أصبحت مكانا متميزا لتعلم الخط وتعليمه خاصة في فترات الاستقرار. فمكَّنَ ذلك الملوك من الاستفادة من أعمال الخطاطين الذين أبدعوا في الكتابة وزخرفتها. وهذا ما جعل ابن عاشور التونسي يقول: «استتبعت العناية المرينية بتصحيح الكتب وضبطها عناية بتجويد الخط، وتجميل الطوالع، وإظهار التراجم والمقاطع، وإبداع التزويق والجدولة والتلوين والتذهيب»[3]، فجمالية الخط حسبه لا تكمن فقط في نوع الخط

(١) المنوني: أبحاث مختارة، ص: ٢٣٦، تاريخ الوراقة المغربية، ص ص: ٥٦-٥٧.

(٢) المنوني: تاريخ الوراقة المغربية، ص: ٤٧.

(٣) المنوني: أبحاث مختارة، ص: ٢٢٨.

المكتوب به، بل في زخرفة مستهلات الكتب وكتابة التراجم والمقاطع بألوان مغايرة ووضع الجداول والإبداع فيها والتزويق بأشكال هندسية وتذهيب الخطوط. ويضيف الأستاذ المنوني عند حديثه عن زخرفة الكتابة بأن فقرات وأجزاء الكتب كانت تفصل بدوائر هامشية، و تؤطر الصفحات بخط أو أكثر من أطرافها الأربع، وتستعمل الألوان المغايرة في الكتابة كالأخضر والأحمر والأصفر وما شابهها[١]. وكانت الصفحات وأحيانا الفقرات ترقم بشكل بارز أو لون مغاير بترقيم خاص عرف بالقلم الفاسي الذي مثل تطويرا للقلم الرومي[٢].

٣- صناعة الربعات:

الربعات هي صناديق من الجلد أو الخشب تصنع لتوضع داخلها المصاحف أو الكتب . وقد صنعت ربعات متميزة لسلاطين الدولة أهدوا أهمها لنظرائهم في البلدان الإسلامية، أو لبعض المعالم الدينية في العالم الإسلامي مثل البيت الحرام وبيت المقدس. وكانت الربعات الجلدية تصنع من جلد جيد بعد معالجة الدباغين له، في حين تحول الربعات الخشبية من عود الأبنوس والصندل ثم ترصع بالعاج وأنواع الجواهر ، وتغلف أحيانا بالجلد والنسيج الرفيع، وعادة ما كانت تذهب الواجهات الخارجية للربعات.

والصناعات العلمية المذكورة المنجزة في مرافق صناعية مخزنية مكنت من تقديم منتوج علمي في الفترة المرينية الوطاسية ، يمكن تلخيص أهم مابرز منه في المصاحف المخطوطة التي بعث الأهم منها مع الهدايا من لدن سلاطين الدولة :

---

(١) نفسه: ص ص: ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) التازي، عبد الهادي: التاريخ الدلوماسي، ٢، ص: ٤١.

. مصاحف السلطان أبي يعقوب يوسف المريني:

أحدها بُعث ضمن هدية إلى المسجد النبوي مع ركب الحج الذي تقدمه شرفاء أمغار الصنهاجيين[١]، بعدما صنعت له ربعة مرينية بنفيس الدر وشريف الياقوت ورفيع الأحجار وقد أنجز من طرف مختصين في الخط والتسفير. والغالب على الظن أن هذا المصحف تم عمله بفاس وأرسل من تلمسان سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠١م حين كان السلطان محاصرا هناك لبني عبد الواد إذ لم تكن ظروف الحصار تسمح بإنجاز المصحف في تلمسان ومدينة فاس عاصمة الملك هي المؤهلة لمثل هذا العمل في تلك الفترة والله أعلم.

ولعل السلطان المذكور كتب بيده أو أمر غيره بكتابة مصحف آخر لازالت شذرات رقية نادرة[٢] منه محفوظة.

. مصاحف السلطان أبي الحسن علي المريني:

كتب عددا منها بيده بعدما تعلم الكتابة بخط جميل على يد الخطاط النجللي الذي كان كاتبَ وقته. وقد كتب السلطان المذكور أحد المصاحف على جلد الغزال في ثلاثين جزءا أهداها لبيت المقدس لا تزال محفوظة في متحفه[٣]. وتمت بعض عمليات تسفير بعض مصاحف أبي الحسن بفاس، في حين سفر البعض الآخر بتلمسان بعد الاستقرار بها. وكان أبو الحسن هذا عند حاجته إلى أعمال الخط والتسفير يحشر الوراقين الذين قد يأتونه من فاس إذا كان بتلمسان بحكم مكانته

(١) الناصري: الاستقصا، ٣، ص: ٨٣؛ السلامي، رشيد: وثائق مرينية، ١، ص ص: ١٣٣-١٣٨.

(٢) المنوني: أبحاث مختارة، ص: ٢٢٧.

(٣) التازي، عبد الهادي: اكتشاف موقع الزاوية المتوكلية، مجلة آفاق للثقافة والتراث، ع٢٢، ص: ١٥٩.

عندهم. وقد اتسمت مصاحف أبي الحسن بالدقة وحسن التسفير صُنعت لبعضها ربعات خشبية من الأبنوس والصندل، ورصعت بالعاج، وغشيت بصفائح الذهب التي زينتها حبات الجوهر والياقوت، وغلفت بالجلد المذهب، ووضعت لها أغطية من الحرير والديباج وأغشية الكتان[١].

. مصاحف السلطان أبي عنان فارس المريني:

ميز كتابة أبي عنان الخط الحسن كتب به نسخ من القرآن الكريم وكتاب «الأحاديث الأربعين العلوية الشريفة». وقد صنعت لبعض المصاحف القرآنية التي خطها يده ربعات وضعت فيها ثم أرسلت إلى بلاد السودان في إطار الرحلة التي قادها ابن بطوطة، حيث كانت تقرأ المصاحف هناك وتختم في إطار تأبين وفاة أبي الحسن المريني[٢].

. أعمال السلطان أبي فارس عبد العزيز:

ساهم هذا السلطان في كتابة مصحف ابتدأ رسمه أبو الحسن وتابعه أبو عنان فأتممه ثم أهداه للمقام الخليلي. وكان أبو فارس بدوره مشتغلا بنسخ القرآن الكريم ووصف خطه بالحسن[٣].

. أعمال محمد بن محمد بن زيان الوطاسي:

نسخ بخط يده صحيح البخاري في أربعين جزءا عام ٨٦١هـ/ ١٤٥٧م و١١

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٣١٤.

(٢)- التازي، عبدالهادي :التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ أقدم العصور إلى اليوم، ١٤٠٦-١٤٠٩هـ/ ١٩٨٦-١٩٨٩م، عشر أجزاء، مطابع فضالة، المحمدية،ج ٧، ص: ٤٦.

(٣) المنوني: تاريخ الوراقة المغربية، ص ص: ٦٣.

جزءا من كتاب «الشفا» للقاضي عياض سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥٢م. والكتابان محفوظان بخزانة القرويين، وقد كان هذا الناسخ من عائلة الوزراء الوطاسيين لدى ملوك دولة بني مرين[١].

.مصحف السلطان الوطاسي أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبد الله محمد الشيخ (ت٩٦١ هـ/ ١٥٥٣م):

كتبه في ثلاثين جزءا صنعت له ربعة جميلة بعثت بعد فراغه من الكتابة سنة ٩٤٦هـ/ ١٥٤٠م إلى المدينة المنورة[٢].

ورغم إتقان السلاطين للخط، فإن أعمالهم كانت محتاجة إلى خطاطين وكتاب أنجزوا لهم ماطلبوه منهم وأبرزهم :

.محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي التلمساني:

الذي توفي مغربا في المشرق بعد سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٩م، كتب لسلاطين بني مرين ومنهم أبو الحسن وأبو عنان، كان بارع الخط أنيقه[٣].

. محمد بن محمد بن رشيد:

كتب للسلطان أبي عنان ومن بعده، وكان حسن الخط بارعه ابن مقلة زمانه كما وصفه ابن الأحمر، كان يعيد بخطه ما يكتبه ابن رضوان، وكان قليل المعرفة والدراية

---

(١) المنوني: تاريخ الوراقة المغربية ، ص: ٦٦.

(٢): ، نفسه: ص: ٦٧.

(٣) ابن القاضي: الجذوة، ١، ص: ٢٢٥.

باللغة العربية[١].

. محمد بن يحيى الغساني البرجي:

من أهل غرناطة، كان قاضيا بفاس صدرا في الأدب حسن الخط والشعر والكتابة، خدم أبا عنان، توفي سنة ٧٨٦هـ[٢]/ ١٣٨٥م.

ومن بين الأعمال التي كتبت لأحد أمراء بني مرين:

- كتاب «نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن» لأبي بكر محمد بن عزيز السجستاني كتبت منه نسخة للأمير محمد بن عبد القادر الوطاسي سنة ٨٦٥هـ كانت محفوظة بخزانة القرويين[٣].

تلك هي أهم أعمال الخط والزخرفة والتسفير، وقد اتضح أن بعض سلاطين الدولة أتقنوا صناعة الخط، كتبوا بها المصاحف وبعض الكتب الشريفة، استعانوا بالوراقين في جمعها وتسفيرها، وقربوا كتابا لهم دراية بكتابة الخط لتحرير مراسلاتهم ومعاهداتهم ومواثيقهم.

- أهم الأعمال الفنية:

إن الأعمال العلمية التي سبق ذكرها كان الكثير منها في حاجة إلى مهارات فنية

---

(١) نفسه: ص: ٢٣١.

(٢) نفسه: ص: ٣١١.

(٣) الدباغ، محمد بن عبدالعزيز: جامعة القرويين وأثرها في حفظ التراث الإسلامي، أشغال ندوة «جامعة القرويين وآفاق إشعاعها الديني والثقافي» نظمها بيت آل الحبابي، الرباط، منشورات جامعة القرويين، ١٩٩٦، ص: ١٠٨.

تمت الإشارة إليها . لكن النشاط الصناعي المخزني احتاج أيضا إلى بعض الأعمال الفنية غير العلمية أبرزها صنع نموذج مصغر لمدينة جبل الفتح الأندلسية بقصر فاس الجديد في عهد أبي عنان، وصناعة أثواب خاصة للسلاطين بدار الطراز.

١ - نموذج مدينة جبل الفتح:

مثلت صناعة هذا النموذج تعبيرا عن الدقة والخبرة لدى صانعيه ،حيث كان السلطان أبو عنان قد امر بصنعته بمشوره السعيد في قصر فاس. وأهمية صناعة هذا النموذج مثلتها تقنيات التمثيل الهندسي للمعالم العمرانية العمرانية والطبيعية التي حولت إلى أشكال مصغرة تمثلها بدقة وضبط بإنجاز من الصناع والحرفيين المختصين.

وللدول الإسلامية تجارب في التمثيل لكن عادة ما كان يتم بهدف بناء معلمة أو مدينة معينة[1]. لكن الجديد الذي أضافه صانعوا نموذج جبل الفتح هو صنعه على هيئة مدينة قائمة، وصناعته أيضا هي إبراز لمدى اهتمام الدولة المرينية بهذه المدينة وغيرها من مدن الأندلس التي كانت تواجه الزحف المسيحي.

ويصف الرحالة ابن بطوطة النموذج المصنوع بقوله: «وبلغ من اهتمامه (أبو عنان) بأمور الجبل أن أمر أيده الله ببناء شكل يشبه الجبل المذكور، فمثل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحصونه وأبوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده وأهرية زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء... فكان شكلا عجيبا يعرف

(١) مثل ما حدث في عهد الملك عبد الملك بن مروان عند عزمه بناء قبة الصخرة بالقدس الشريف، ورد ذلك عند الرباط، ناصر: مفهوم العمارة في الكتابات الإسلامية في القرون الوسطى، عالم الفكر، العمارة، م٣٤، ص ص: ١٨-١٩.

قدره من شاهد شكل الجبل وشاهد هذا الجبل»[١].

وقد توصل الصانعون المختصون إلى تمثيل الجبل بعد معاينة المدينة القائمة وضبط وحداتها وتوثيق الأشكال والأبعاد، ثم تنزيلها بتعاون بين المهندسين والمختصين في البناء. إذ كانت مواد البناء معتمدة بشكل أساسي في صناعة النموذج إضافة إلى ما احتاجوه من مواد أخرى كالأصباغ، وذلك باستعمال أدوات تتسم هي الأخرى بالدقة.

٢ - نسج وطرز الأثواب الفاخـرة:

اعتبرت «دار الطراز» من المرافق الصناعية المتميزة بفاس الجديد، نُسجت داخلها الأثواب الخاصة بالسلطان وحاشيته بالشكل الذي يليق بمكانتهم. وكان «الناظر» هو المسؤول عن تسيير هذه الدار بتفويض وتعيين من السلطان[٢] على غرار نظار الدور الصناعية الأخرى مثل دار السكة ودار الصناعة وغيرهما. ويبدو أن مسؤولية الناظر بدار الطراز كانت تكمن في توفير المواد الأولية للنسج والطرز كالقطن والصوف والكتان والحرير والمواد الأخرى الرفيعة كخيوط الصقلي وخيوط الذهب وغيرها بالكميات المطلوبة، وحَشْر المعلمين والصناع والمتعلمين للقيام بأعمال النسج والطرز، وحفظ الإنتاج المطلوب وتقديم ما هو مطلوب منه إلى السلطان الذي يستعمله مع فئة خاصة من الأقرباء ومسؤولي الدولة كلباس، أو يبعث أنواعا محددة كهدايا للبلدان الخارجية .

وقد ضمت دار الطراز أدوات وآليات النسج والطرز مثل المرمات والمغازل

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ص: ٦٥٢-٦٥٣.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ص: ٢٦٦-٢٦٧.

ولوحات تحتوي رسوما وأشكالا توضع على الأثواب المنسوجة والمطرزة. واتسمت تقنيات العمل بالدقة والرونق. فكانت عمليات نسج وطرز الأثواب تتم بطريقة آلية تمكّن من وضع علامات مطرزة بألوان مغايرة على الأثواب[1]. وقد أشار ابن الخطيب في إطار حديثه عن «دار الطراز»، التي نعتها أيضا بدار الديباج، إلى تعرضها لحريق في سنة معينة من تاريخ الحكم المريني مما أدى إلى إتلاف عدة آليات كانت داخل هذه الدار مما يؤكد أهمية الصناعة التي كانت تنجز فيها.

ونسج الأثواب في دار الطراز استلزم أيضا خياطة ما هو مطلوب منها، وهو ما يحتمل تخصص خياطين خاصين يعملون في تلك الحرفة في مرفق صناعي تابع للدولة،أو إرسال ما هو مطلوب خياطته لحرفيين خاصين بالمدينة العتيقة.

لقد عبرت التقنيات الصناعية التي تمت بدار الطراز، والتنظيم الذي اتبع في تسييرها عن التأثر بالنمط الأندلسي[2] حيث كان رسم الطراز معتمدا لدى ملوك الأندلس الذي نقله عنهم ملوك المغرب. وهو بمثابة ظهير أو مرسوم يعين به السلطان الناظر على دار الطراز، ويحدد فيه طرق التمويل والإجراءات التي تواكب ذلك.

ولم ترد معلومات محددة عن توطين موقع دار الطراز، لكن من الوارد وقوع مكانها بفاس الجديد بقرب القصر السلطاني أو في أحد أطرافه كما أن إعادة إعمارها بعد الحريق يعد أمرا واردا أيضا.

تلك إذن هي أهم الحرف والصناعات المخزنية التي مكنت العسكرية منها،

---

(١) العلوي، عبد العزيز: فاس والتجارة الصحراوية، مجلة فاس وإفريقيا، ص: ٩٧.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٢٦٧.

خصوصا عندما تكون أوضاع البلاد مستقرة، من ضمان هيبة الدولة العسكرية بالقيام بالحفلات والمعارك داخل المغرب و بالجهتين الشرقية والأندلسية، والدفاع عن حاضرة السلطان ورعيته بفاس، أما سك النقود فقد كانت أبرز نتائجه ازدهار الأنشطة الاقتصادية والمالية، ومؤسسة المخزن تبنت أعمال علمية وفنية كان الهدف منها إبراز عظمة الدولة، وقد تنوعت أصول وانتماءات الحرفيين المستخدمين من طرف الأنشطة المخزنية لتشمل عناصر أجنبية إلى جانب المحلية.

الفصل الثاني

الحرف والصناعات الوقفية

المبحث الأول: البناء والزخرفة

المبحث الثاني: التجهيزات والخدمات

المبحث الثالث: صناعة آلات الوقيت

أنجزت مؤسسة الأوقاف أو الأحباس حرفا وصناعات كانت المعالم التي أشرفت على تسييرها وماقدم فيها من خدمات في حاجة إليها .واعتمدت تلك المؤسسة في الإنفاق على الأعمال التي أنجزها الحرفيون والصناع على الأموال التي أوقفها السلاطين والناس لفائدة تلك المعالم (مساجد،مدارس،مارستانات ،زوايا...) وعلى ماكانت تدره الممتلكات الموقوفة من أموال عن طريق تفويت حقوق استغلالها للمشتغلين بالأنشطة الاقتصادية التي تحتضنها.

وقد اهتم عامة الناس بوقف ممتلكاتهم لفائدة المساجد ، كما أولى السلاطين العناية بها وبالمعالم الأخرى بتعيين الأموال المخصصة لدعم الأعمال والأنشطة الوقفية، وقد حرص سلاطين الدولة على التحكم في مؤسسة الأوقاف بتعيين المسؤولين عنها ، وعزل بعضهم –إن اقتضى الأمر ذلك–بالشكل الذي تكون معه هذه المؤسسة في خدمة الدولة.

وكانت كل معلمة وقفية تُسَير من طرف ناظر يسهر مع مساعديه على جمع الموارد المالية وإيداعها وصرفها في الوجوه المخصصة لها باستشارة السلطان. ووُضعت بعض مداخيل الضرائب رهن إشارة النظار قصد تدعيم إنجاز بعض المشاريع خاصة بناء وزخرفة المعالم العمرانية حين تكون أموال الأوقاف غير كافية.

وإضافة إلى أعمال البناء والزخرفة أشرفت مؤسسة الأوقاف على تجهيز المرافق الحُبسية وتقديم الخدمات للنزلاء بها من إطعام وتطبيب وتنظيف وحراسة وغيرها. مما نشط أنواعا من الحرف والصناعات المرتبطة بتلك الخدمات .كما احتضنت بعض المعالم الوقفية كالمساجد والمدارس أوراش صناعة آلات التوقيت بأمر من السلاطين وتحت مسؤولية النظار.

المبحث الأول

أشغال البناء والزخرفة

اهتمت مؤسسة الأوقاف ببناء وترميم وزخرفة المساجد التي كانت قائمة. فوجهت لجامع القرويين عناية بالغة، إذ عرف عدة إصلاحات وإضافات. كما أنشأت وأصلحت مجموعة من المساجد الأخرى بفاس الجديد والعتيق. واعتبرت المدارس العلمية إبداعا مرينيا حيث بُنيت بتمويل من الأوقاف مجموعة منها أدت إلى جانب الوظيفتين العلمية والاجتماعية وظيفة دينية بشكل متكامل ومتداخل. وقد شيدت من مال الأوقاف أيضا بعض الزوايا أهمها الزاوية المتوكلية بظاهر المدينة البيضاء. ومارستان سيدي فرج الذي أسس بمركز المدينة العتيقة.

وكانت المعالم المذكورة تشهد باستمرار أعمال بناء وإصلاح ما تضرر منها حتى تؤدي الوظائف التي أنشئت من أجلها.

المطلب الأول

البناء

شملت أشغال البناء توسيع وإصلاح وبناء المساجد الجامعة والراتبة[1] وبناء المدارس والمارستان والزاوية.

- المساجـد:

ذكر ابن الخطيب حين وصفه مدينة فاس بأنها شهدت «عمران المساجد والجوامع، وإدامة ذكر الله في المآذن والصوامع»[2]،وهو تعبير عما شهدته المدينة المذكورة طيلة عهودها ومنها الفترة المرينية التي شيدت خلالها عدة مساجد وأصلحت وجددت بعض من التي كانت قائمة.

. المساجد الجامعـة:

تتمثل أهم الأعمال المنجزة في بناء الجامع الكبير بالمدينة البيضاء وإصلاح وتجهيز جامعي القرويين والأندلس.

---

(١) المساجد الجامعة هي التي تؤدى فيها صلاة الجمعة والصلوات الخمس، والمساجد الراتبة هي المخصصة لإقامة الصلوات الخمس فقط.

(٢)- ابن الخطيب،لسان الدين : معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق: محمد كمال شبانة ، اللجنة المشتركة المغربية الإماراتية لنشر التراث الإسلامي ، صندوق إحياء التراث ، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م ، ص: ١٧٢.

١- الجامع الكبير:

بعد تأسيس بني مرين لفاس الجديد أسسوا بها الجامع الكبير سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٩م على يد محمد بن عبد الكريم الحدودي[١]. وقد وصف ابن بطوطة هذا الجامع قائلا: «وهو الذي امتاز بالحسن وإتقان البناء وإشراق النور وبديع الترتيب»[٢]. وذلك في خضم حديثه عن عناية أبي عنان بعمارة الجامع المذكور، وفي كلام ابن بطوطة إثبات لأهمية أعمال البناء والزخرفة التي تمت فيه، حيث استفاد من وجوده قريبا من القصر السلطاني، واحتضانه الأنشطة الدينية والعلمية، إذ كان يؤدي فيه سكان فاس الجديد صلاة الجمعة وتلقى داخله الدروس العلمية بحضور السلطان في كثير من الأحيان. كما عرف بهذا الجامع إحداث مجلس للقراء سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م في عهد أبي فارس عبد العزيز المريني[٣].

٢- جامع القرويين:

عرفت الفترة المرينية الوطاسية أعمال البناء والإصلاح لهذا الجامع نظرا لأهميته لدى الخاصة والعامة، وكثرة أوقافه، وتجنبا لأي ضرر قد يلحق ببنايته التي شهدت عدة إضافات منذ تأسيسه. فقد كان الجامع في حاجة إلى إصلاح وحداته ومرافقه التي أصبحت مهددة بالتدهور والسقوط مثل الصومعة والجدران ، كما أضيفت للجامع مرافق ووحدات جديدة كغرفة المؤقتين وزاوية القراء والخزانة وغيرها، وفُتحت في أطرافه أبواب جديدة، وصاحب أعمال البناء والإصلاح جلب قنوات

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص: ١٦٢.

(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص: ٦٥٠.

(٣) المنوني: حضارة بني مرين من خلال منشآتهم، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٣٩.

جديدة إلى الجامع ساهمت في إغناء موارده المائية.

وأشرف على إنجاز الأعمال المذكورة -وهي الأهم في فترة البحث -ثلاثة نظار تعاقبوا على تحمل المسؤولية بموافقة من سلاطين الدولة المرينية منذ عهد يعقوب بن عبد الحق مرورا بأعقابه يوسف وأبي عنان ووصولا إلى أبي سالم. والنظار الذين سيروا الأشغال هم: قاضي الجماعة والإمام والخطيب بالجامع محمد بن أيوب أبي الصبر ثم والي المدينة الحدودي المشار إليه سابقا في إطار الحديث عن بناء الجامع الكبير، والقاضي أبو غالب المغيلي الذي عوض الحدودي بعد عزله من طرف السلطان.

فقد انطلقت أشغال البناء والإصلاح بالجامع منذ صدر الحكم المريني في عهد يعقوب بن عبد الحق. واستمرت في عهد أعقابه خاصة ابنه يوسف. ففي سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٤م استشار والي المدينة الحدودي السلطان يعقوب في نقض وإصلاح الجدار الشرقي بعد أن لاحظ أنه مشرف على السقوط فأجاز له ذلك وأمره بالإنفاق عليه من مال الجزية والأعشار إذا نفذت أموال الأحباس، فبنى الحائط وما والاه من السقف[1]. وفي عهد يوسف بن يعقوب أشرف القاضي الخطيب بالجامع أبي الصبر على تجديد صومعته سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٩٠م، بإذن من السلطان أيضا، الذي سمح له بالصرف من أموال أعشار الروم، لكنه رد عليه بأن أموال الأوقاف كانت كافية، فتمت عمليات تلبيس الصومعة بالجبص والجير، بعدما كانت مبنية بالحجر المنجور منذ تأسيسها سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م في فترة الحكم الزناتي. واستعان الحرفيون في تلبيسها بالمسامير الكبيرة التي دقت بين الأحجار كي تساعد على تثبيت ما لبست به، وبعد فراغ البنائين من التلبيس تم دلكه حتى صار مصقولا. فمكن ذلك من تجنب

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٦٨.

ضرر الطيور التي كانت تعشش بين الأحجار وتساهم في تدهور بناء الصومعة. وفي نفس التاريخ -أي ٦٨٨هـ- تم بناء غرفة على باب الصومعة خصصت لجلوس المؤذنين والمؤقتين[١]. وبذلك لم تعد عمليات بناء وزخرفة الصوامع بالحجر المنجور ذات فائدة، وهو ما يبرر زخرفة الصوامع المرينية بالزليج[٢].

وأشرف الناظر أبو الصبر كذلك على صنع عنزة[٣] جديدة لجامع القرويين من الخشب، تمت أعمال نقشها وزخرفتها وكتبت عليها عبارات دينية وسياسية، استغرقت مدة صنعها سنتين (بين ٦٨٧-٦٨٩هـ/ ١٢٨٨-١٢٩٠م) ، أنفق فيها الناظر من مال الأحباس، وتم تركيبها في قبلة الصحن فعوضت العنزة القديمة التي كانت قائمة هناك المصنوعة من خشب الأرز. ولذلك فهذا النوع من الخشب هو المرجح اعتماده في صناعة العترة الجديدة أيضا بحكم جودته، وأهميته في مثل هذه المصنوعات، إذ يُمْكنه مقاومة الرطوبة والحرارة. وكانت العنزة توضع في قبلة الصحن لتتحول إلى محراب للمصلين بأرضية الصحن في فصل الصيف[٤].

وقام الوالي الحدودي من جديد سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩١م بفتح باب مدرج بقبلة الجامع مقابلا لنظيره بجامع الأندلس، ثم جلب الماء إلى الجامع من عيون ابن اللصادي التي ذكر ابن أبي زرع أنها اصبحت تعرف بعيون الكوازين. حيث تم حفر

---

(١) نفسه: ص ص: ٥٦-٥٧.

(٢) يبدو شكل هذه الزخرفة في عدة صوامع من بنيها صومعتي مدرسة المدينة البيضاء ومدرسة البوعنانية.

(٣) لوحة خشبية مزخرفة توضع بين الصحن وقاعة الصلاة تعد محرابا للإمام في فصل الصيف.

(٤) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص: ٦٥؛ التازي، عبد الهادي: جامع القرويين، المسجد الجامعة بمدينة فاس، موسوعة لتاريخها المعماري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣،ج٢، ص: ٣٢٠.

قنوات مرت بأحياء المدينة عبر رحبة الزبيب. لكن هذين العملين تمّا دون مشورة السلطان الذي غضب من ذلك فعزل الحدودي من مهمته وعوضه بالمغيلي، ثم أغلق الباب الذي عرف بباب الحدودي[١]. ويوضح هذا العزل حرص السلاطين على مسؤوليتهم عن أية إصلاحات أو تعديلات يشهدها الجامع.

وبعد تآكل الحائط الجوفي(الشمالي) للجامع من جهة دار الوضوء وإيشاكه على السقوط، استأذن المغيلي السلطان يوسف بن يعقوب في بنائه وإصلاحه فأذن له بذلك، بتمويل خاص منه مقدما له خلخالين ورثهما من مال خاص لأبيه. فهدم السور وأُعيد بناؤه سنة ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م[٢].

وفي عهد أبي عنان أُنشئت خزانة للكتب بالجامع سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٥٠م بأعلى المستودع الشرقي من الجامع بالناحية الشرقية من صحن الجامع، صُنعت من الخشب وضَمت رفوفا للكتب لها باب خشبية منقوشة. وبقيت كذلك إلى أن نقلت في عهد المنصور الذهبي السعدي إلى جدار القبلة بجانب المحراب[٣].

ومن الملحقات التي أضيفت بأمر من السلطان أبي سالم المريني سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م، زاوية القراء التي أقيمت في الركن الشرقي من قبلة الجامع فوق ساباط[٤]، رُتب بها قراء يختمون القرآن كل أسبوع. ولا زالت هذه الزاوية قائمة

---

(١) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص: ٦٦؛ التازي: المرجع السابق، ج٢، ص: ٣١٨

(٢) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ص: ٦٨-٦٩.

(٣) الدباغ، محمد بن عبد العزيز: خزانة القرويين وأثرها في حفظ التراث الإسلامي، جامعة القرويين وآفاق إشعاعها الديني والثقافي، أشغال ندوة نظمها بيت آل الحبابي، منشورات جامعة القرويين، الرباط ١٩٩٦، ص: ١٠٧.

(٤) الساباط هو ممر مسقوف توجد فوقه زاوية القراء المذكورة بدرب الطويل بالسور الجوفي لجامع القرويين.

تحتوي على باب مدرج بدرب الطويل[١].

٣- جامع الأندلس:

شهد جامع الأندلس بدوره إصلاحات على إثر قدم بنائه وما لحقه من تخريب في زمن المجاعة والفتنة في الفترات المضطربة من حكم الموحدين. ففي سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م استشار الفقيه محمد بن مسونة السلطان يوسف بن يعقوب في إصلاحه فأذن له. وبذلك تم تجديد كثير منه وأصلحت مداخل أبوابه بتمويل من الأحباس. وجلب له الماء من وادي مصمودة بعد تخريب القناة التي كانت تمده بالمياه من خارج باب الحديد. كما سيتم بعد ذلك إصلاح القناة التي كانت مخربة أيضا في عهد أبي ثابت سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م بإنفاق من بيت المال وإشراف من العريف أحمد الجياني، مما جعل المياه تتدفق من جديد على جامع الأندلس من خارج باب الحديد[٢].

. المساجد الراتبة:

هي المساجد التي تؤدى فيها الصلوات الخمس والتي يرتب بها الأئمة للقيام بذلك. وقد بنى وأصلح بنو مرين الكثير منها سواء بالمدينة العتيقة أو الجديدة.

ففي عهد أبي يحيى الذي كان يسمى أيضا أبا بكر (٦٤٢-٦٥٦هـ) بنيت صومعة لمسجد بوجلود[٣] بالقصبة التي احتضنت أنشطة أجهزة الدولة قبل بناء فاس الجديد.

---

(١) المنوني، محمد: حضارة بني مرين من خلال منشآتهم، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٣٩.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس لمطرب، ص ص: ٧٦-٧٧.

(٣) Gambazard-Amahan, Catherine : Le Décor sur bois dans l'architecture de Fès, Centre National de la recherche scientifique de Paris 1989, P : 137.

وأصلح بنو مرين مسجدا من المساجد المشهورة بفاس يعرف بمسجد الشرفاء يعود تأسيسه إلى الفترة الإدريسية. وهو من البنايات الأولى التي شيدت عند تأسيس ادريس بن ادريس لمدينة فاس وعدوتها القرويين بقي على الطريقة التي بني عليها، كانت تقام فيه الخطبة قبل نقلها إلى جامع القرويين. ولم يزل على ذلك « إلى أن خر سقفه وتخلقت جدرانه وأشرف جميعه على السقوط والانكباب لتقادم العهد ومرور الأيام عليه فانتُدب لبنائه الفقيه شعيب بن محمد بن أبي مدين فشرع في نقضه وبنائه، ورد ما كان عليه من غير زيادة ولا نقصان» وذلك سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م[١].

ويتضح من ذلك مدى حرص المرينيين في عمليات إصلاح البنايات على المحافظة على النمط الذي بنيت به أول الأمر. استحضارا للذاكرة لدى السكان، وتقديرا لأعمال سابقيهم خاصة بالنسبة لمسجد مثل الشرفاء الذي له رمزية لدى سكان المدينة.

وبعد الهدم الذي لحق الأطراف الفاصلة بين عدوتي القرويين والأندلس بفعل فيضان وادي فاس سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٦م تهدمت كثير من المنشآت والبنايات منها مساجد تمت إعادة بناء اثنين منها هما مسجدا جزاء ابن برقوقة والسمارين بأمر من أبي سعيد عثمان[٢].

وفي عهد أبي الحسن علي بنيت عدة مساجد منها مسجد حلق النعام الذي يعرف أيضا بمسجد أبي الحسن إشارة إلى مؤسسه، بالطالعة الصغرى قريبا من المدرسة البوعنانية وذلك سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤٢م. وبمركز المدينة تم بناء مسجد

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤٧.

(٢) نفسه: ص: ٤١٤.

الصفارين في الحي الذي عرف أيضا بالشرابليين[١] إضافة إلى مسجد الوراقين في حي الوراقين على الواجهة الجنوبية لجامع القرويين[٢].

ومع منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي بني مسجد باب عجيسة ورأس عين أصليتن[٣]. إذ يقع الأول قرب باب عجيسة أحد أبواب المدينة من الجهة الشمالية، أما الثاني فيوجد بحي عين أصليتن الفاصل بين حومتي باب عجيسة والطالعة الكبرى.

أما مدينة فاس الجديد فشهدت بناء مساجد لحداثة عهد تأسيسها منها مسجد الحمراء الذي ينفتح على الشارع الكبير الرابط بين باب عيون صنهاجة وباب القنطرة، ومسجد الزهر الذي شيد في عهد أبي عنان في آخر سنة من حكمه ٧٥٩هـ١٣٥٧م قريبا من سور القصر السلطاني الحالي مازال يعرف بهذا الاسم، ومسجد السوق الكبير الذي أشرف على بنائه حاجب السلطان أبي سعيد الثاني المسمى الطريفي بحي للا غريبة، وذلك سنة ٧٩٨هـ(٤)/ ١٣٩٦م.

---

(١)-احتضن حي الشرابليين الحالي الموجود على الطريق الغربي المؤدي إلى باب الشريعة حرفة الصفارين في الفترة المدروسة.

(٢)- لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ترجمة : نقولا زيادة، نشر مكتبة لبنان بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بنيويورك، بيروت ١٩٦٧ ، ص: ٤٦.

(٣)المنوني: مذكرات من التراث المغربي، م ٣ ،٣٨.

(٤) توري، عبد العزيز: الأزهر، معلمة المغرب، م٢، ص: ٣٦٤؛ المنوني: المرجع السابق، م٣، ص: ٣٨.

جدول يبيّن مساجد مرينية بفاس:

اسم المسجد	تاريخ التأسيس	الموقع	المرجع[1]
بوجلود(٢)	فترة أبي بكر المريني (٦٤٢-٦٥٦هـ)	قصبة بوجلود القديمة	معلمة المغرب،م،١٨ ص: ٦١٧٩
الجامع الكبير	٦٧٧هـ/ ١٢٧٧م	فاس الجديد(حي مولاي عبد الله حاليا)	الذخيرة السنية،ص: ١٦٢
ابن أبي برقوقة	٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م	جزاء ابن أبي برقوقة	الأنيس المطرب،ص: ٤١٤
السمارون	٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م	السمارون بمدخل الرصيف قرب سيدي العواد	الأنيس المطرب،ص: ٤١٤
حلق النعام	٧٤٢هـ/ ١٣٤١م	يقع في الزقاق الذي يربط بين الطالعتين الكبرى والصغرى قرب البوعنانية	جامع القرويين

(١) المراجع المقدمة مفصلة في الهوامش وفي اللائحة البيليوغرافية

(٢)الأمر يتعلق ببناء الصومعة فقط التي أضيفت إلى الجامع الذي كان مشيدا قبل ذلك.

اسم المسجد	تاريخ التأسيس	الموقع	المرجع[1]
الصفارون	فترة أبي الحسن المريني	نُعت بمسجدالشرابليين يقع في الصفارين	لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٤٦
الوراقون	فترةأبي الحسن المريني	يقع في حي الوراقين جنوب جامع القرويين	لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٤٦
رأس عين أصلتين	منتصف القرن: ٨ هـ/ ١٤م	حي عين أصليتن قرب سقاية الدمناتي	مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٣٨
الحمراء	فترة أبي الحسن المريني	على الشارع الكبير بين باب السمارين وباب القنطرة	مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٣٨
الأزهر	٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م	فاس الجديد بجنوب السور السلطاني	معلمةالمغرب،٢، ص: ٣٦٤
للا غريبة	٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م	حي للا غريبة بفاس الجديد في قسمه الشرقي	مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٣٨

ولائحة المساجد المقدمة في الجدول لا تَحصِر بالضرورة كل المساجد التي أسست في الفترة المرينية، إذ تم التركيز على التي بنيت بتمويل من الأوقاف وبدعم من المخزن.

وقد مكنت عمليات بناء وإصلاح وتجديد المساجد من المحافظة على البنية التي كانت قائمة من جهة، ومسايرة التطور المعماري والسكاني الذي كانت تشهده مدينة فاس من جهة ثانية.

- المـدارس:

هي بنايات تؤدى بها وظائف علمية، دينية واجتماعية. إذ كانت تقدم بها الدروس وتؤدى فيها الصلوات ويأوي داخلها الطلبة. ومولت أيضا الأوقاف التي تكونت بصفة خاصة مما خصصه السلاطين من أموال لعمليات بناء مدارس فاس التي تعد خطتها ابتكارا من بني مرين تعبر عن التفاعل مع المشرق الذي كان له سبق في تأسيس المدارس وإلقاء الدروس والوعظ بها[١] إلى عن النزول عند رغبة حكام دولة بني مرين في الإشراف على التعليم وتنظيمه والاهتمام به. وكان للأندلسيين وغيرهم فضل في إنجاز أعمال بناء المدارس فنقلوا إليها تقنياتهم ومهاراتهم. وباعتبار الفقهاء والعلماء طرفا رئيسيا في التعليم بالمدارس وغيرها، أبدى بعضهم معارضة لبناء المدارس، لم يثن السلاطين عن المضي في مشروعهم الجديد[٢].

وانطلقت أعمال بناء المدارس منذ صدر الدولة في فترة يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ)[٣].

---

(١) أسست بالمشرق الإسلامي مجموعة من المدارس أهمها مدرَسة «نظام الملك» ببغداد، العودة إلى: Vilches, José, Miguel Puerta: Art nasride et mérinide, l'art de la médéterranée, renaissances en orient et en occident, 1250-1490, le rouergue, actes sud 2003, P : 162.

(٢)- من المعارضين لإنشاء المدارس إسحاق بن مطهر الورياغلي حسب: البادسي، عبدالحق: المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق: سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص: ٥.

(٣) بنيت أول مدرسة سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م من طرف يعقوب بن عبد الحق المريني حسب ما ورد عند ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص: ١٦٢.

فبنيت مدرسة الصفارين بشكل بسيط[1] بعد تحويلها من منزل كان قائما هناك. وقد تسارعت وتيرة البناء في فترة أبي سعيد عثمان وابنه أبي الحسن علي. وهي الفترة التي أسست فيها معظم المدارس. وبعد منتصف القرن ٨هـ/ ١٤م أسس أبو عنان أهم وآخر مدرسة مرينية عرفت بالمتوكلية أسوة بلقبه.

ولم تشهد فترة ضعف الدولة بعد وفاة أبي عنان بناء مدارس جديدة. وهو شيء يُبرَّر بالوضع العام المتدهور الذي قض كيان الدولة المرينية في الفترة المذكورة، استمر حتى في فترة ملوك بني وطاس، لم تتوقف معه أعمال التدريس والتعليم ما دامت المرافق العلمية من مدارس ومساجد قائمة. وهيئة التدريس من فقهاء وعلماء عاكفة على التوجيه والإرشاد والتكوين. وقد استمرت المدارس في أداء وظائفها لفترة زمنية ليست بالقصيرة شملت حتى فترات حكم السعديين والعلويين.

لا تختلف تقنيات البناء ومواده في المدارس عن أعمال البناء الأخرى. فقد تميزت تصاميم المدارس بخصوصيات روعيت فيها طبيعة الوظائف التي تؤديها المدارس، حيث تتوفر على صحون مكشوفة في معظم الحالات تتوسطها صهاريج أو نافورات، وتتكون كل مدرسة من طابقين أو ثلاثة يخصص الأرضي للتدريس والصلاة والثاني والثالث لإيواء الطلبة. وقد يأوي الطلبة أيضا في الطابق الأرضي كما هو الحال بالنسبة لمدرستي الصهريج والعطارين. كما تحتوي بعض المدارس على صوامع مثل الصفارين وفاس الجديد والمتوكلية (البوعنانية)، كانت تؤدى بالأخيرة صلاة الجمعة. كما تحتضن المدارس ملحقات إضافية مثل الميضات داخلها ودور الوضوء خارجها والساعة المائية بالبوعنانية. وتتميز مداخل المدارس بالصغر أو البساطة تارة كما هو الشأن بالمدرسة المصباحية وبالكبر والفخامة تارة أخرى كما هو

(١) بساطة بنائها ملحوظة مقارنة مع المدارس الأخرى.

الشأن في مدارس الصهريج والعطارين والبوعنانية ، وذلك التباين رهين طبيعة المكان الذي فتحت به المداخل والظروف التي ميزت فترات التأسيس.

وهذا جدول يقدم المدارس المؤسسة بفاس ،وبعض المعلومات الإضافية عنها

جدول: المدارس المرينيـة

اسـم المدرسة	تاريخ التأسيس	الموقـع	المرجـع
الحلفاويون	٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م	حي الصفارين في قبلة خزانة القرويين	جذوة الاقتباس، ١، ص: ٣٣٩
المدينة البيضاء	٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م	القصر السلطاني الحالي بفاس الجديد	الأنيس المطرب، ص: ٤١٢
السبعيون	٧٢١هـ/ ١٣٢١م	بين جامع الأندلس ومدرسة الصهريج (عدوة الأندلس)	الأنيس المطرب، ص: ٤١٢.
الصهريج	٧٢١هـ/ ١٣٢١م	جنوب غرب جامع الأندلس ومدرسة السبعيين	الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٤١٢
العطارون	٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م	شرق سوق العطارين قريبا من جامع القرويين	الاستقصا ٣، ص: ١١٢

اسم المدرسة	تاريخ التأسيس	الموقع	المرجع
الوادي	٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م	حي: مصمودة على وادي مصمودة بعدوة الأندلس	مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٣٣
المصباحية	٧٤٥هـ/ ١٣٤٥م	في جوف(شمال) جامع القرويين	المسند الصحيح، ص ص: ٤٠٥-٤٠٦
المتوكلية (البوعنانية)	٧٥١-٧٥٦هـ/ ١٣٥٠-١٣٥٥م	تقع في سوق القصر على زقاق الطالعة الكبرى	Inscriptions arabes de Fès, T10, PP 264-265

- المعالم الأخرى:

أهمها مارستان سيدي فرج المؤسس بقلب عدوة القرويين في صدر دولة بني مرين والزاوية المتوكلية التي شيدت في عهد أبي عنان بظاهر المدينة.

١- المارستان:

ينعت أيضا بالبيمارستان وهو مستشفى لمعالجة لمرضى، أسسه يعقوب بن عبد الحق المريني بمركز المدينة بسوق الحناء قريبا من العطارين سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م. وعُرف بسيدي فرج اقتصرت وظيفته في البداية على مداواة المرضى ومعافاتهم. وقد تطورت وتحسنت وظائفه في فترتي أبي الحسن وأبي عنان، فأصبح ينزل به الغرباء عن المدينة لمدة ثلاثة أيام يطعمون وينامون فيه، علاوة على معالجة الأمراض العقلية

والجسدية التي تعتبر الوظيفة الأساسية للمارستان[1].

لقد بني المارستان في موقع متميز يمكنه من أداء وظائفه الاجتماعية بشكل أفضل، حيث ينفتح بابه الرئيسي على ساحة تنتهي إلى سوق العطارين الذي تُعْرض فيه الوصفات والأدوية المفيدة في معالجة مرضى المارستان، كما أن موقع المارستان يوجد قريبا من المرافق الحيوية بالمدينة مثل جامع القرويين وبعض المدارس مما ييسر تنقل الأطباء بين هذه المرافق والمارستان في إطار التكامل بين ما هو نظري يتمثل في إلقاء وتلقي الدروس، وما هو عملي يكمن في مباشرة معالجة المرضى.

٢- الزاوية المتوكلية:

تم بناؤها سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م في عهد السلطان أبي عنان، وقد مثلت تطورا في تنويع المرافق الدينية والاجتماعية. فكانت مخصصة لإيواء الغرباء والضيوف وإطعامهم، تؤدى فيها الصلوات. وقد ضمت هذه الزاوية عدة وحدات بعد بنائها تمثلت في غرف وقبات مخصصة لجلوس الواردين عليها لتناول طعامهم ولنومهم، ودور يقطن فيها المكلفون بالقيام بالأعمال في الزاوية والمسجد الملحق بها. وقد وصف ابن بطوطة عمارتها بالجيدة حين ذكر: «وعمارة الزاوية العظمى على غدير الحمص خارج المدينة البيضاء، فلا مثل لها أيضا في عجيب وضعها وبديع صنعها، وأبدع زاوية رأيتها بالمشرق زاوية سرياقص (سرياقوس) التي بناها الملك الناصر،

(١) المنوني: مؤسسات خيرية وإحسانات مادية، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص ص: ٧٢-٧٣؛ ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤١٥؛ ابن بطوطة: تحفة النظار، ص: ٦٤٩.

وهذه أبدع منها وأشد إحكاما وإتقانا»[١]، ويؤكد هذا النص أهمية الأعمال التي أنجزت في بناء الزاوية بظاهر المدينة البيضاء.

وورد وصف آخر للزاوية على لسان ابن جزي ناسخ رحلة ابن بطوطة فيه إشارة إلى باني الزاوية ووظائفها وتاريخ تأسيسها[٢]:

هي ملجأ للواردين ومـــورد ❁❁❁ لابن السبيل وكل ركب ساري
دار على الإحسان شيدت والتقـى ❁❁❁ فجزاؤها الحسنى وعقبى الـدار
هي آثار مولانا الخليفة فـــارس ❁❁❁ أكرم بها في المجد من آثـــار
لازال منصور اللواء مظفـــرا ❁❁❁ ماضي العزائم سامي المقـدار
بنيت على يد عبدهم وخديم بـــا ❁❁❁ بهم العلي محمد بن جـدار
في عام أربعة وخمسين انقضـــت ❁❁❁ من بعد سبع مئين في الأعصار

ويعد افتتاح أبي عنان للزاوية المتوكلية دليلا على أهميتها. فقد رافقه نخبة من العلماء والفقهاء بعد صلاة الصبح من جامع القرويين إلى موقع الزاوية بظاهر المدينة البيضاء بعد انتهاء أشغال البناء بها، فاطلعوا على مرافقها المتعددة وعلى فن البناء فيها[٣]. فهي من المعالم المهمة التي أبدع فيها الحرفيون المختصون في البناء والزخرفة، وللأسف لا يمكن في الوقت الحالي الاطلاع على الفنون التي ميزت وحداتها بحكم

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص: ٦٥٠.

(٢) التازي، عبد الهادي: اكتشاف موقع الزاوية المتوكلية بظاهر مدينة فاس، مجلة آفاق للثقافة والتراث، ١٩٩٨، ص ص: ١٥٦-١٥٧.

(٣) نفسه

اندثار كلي تعرضت له الزاوية في فترة من الفترات العصيبة التي ميزت الأوضاع العامة للمغرب.

تلك أهم المعالم التي مولتها مؤسسة الأوقاف في البناء الذي سبقت الإشارة إلى أن تقنياته والمواد المستعملة فيه لا تختلف عن أعمال البناء العامة التي كانت تميز مدينة فاس كغيرها من المدن في الفترة التاريخية قيد الدرس.

المطلب الثاني

الزخرفة

إن الأهمية التي حظيت بها المعالم السابقة الذكر بحكم عناية الأمراء والسلاطين بها، والصبغة الدينية التي ميزت وظائفها جعلتها مجالا لإبداع الحرفيين في زخرفتها، فأفرغ هؤلاء طاقاتهم الفنية كي يروق الناظر إليها منظرها، وتكون مصدر افتخار للمدينة وأهلها.

وتختلف الزخارف حسب طبيعة المعلمة والظروف العامة التي رافقت تشييدها وخصوصيات موقعها وموضعها. إذ لوحظ الإنفاق في الزخرفة بالمدارس والزاوية مقارنة مع المعالم الأخرى التي لم تبخل فيها يد المحبّسين والمسيرين والمبدعين. مع بروز لفترات أبي الحسن أميرا وملكا وأبي عنان مقارنة مع الفترات السابقة، والعوائق التي طرحها المكان الذي أسست فيه بعض المعالم مثل مدرستي الصفارين والمصباحية وهو ما جعل بنية الأولى والواجهة الخارجية للثانية غير مساعدتين على الإبداع في الزخرفة.

وتعد التصاميم التي خطت بها المدارس عند بنائها وسيلة في الإبداع والزخرفة، حيث تختلف تصاميم المعالم الوقفية حسب وظيفة كل معلمة، فتقتصر في المسجد على الصحن الذي تمتد حوله قاعة الصلاة ودار الوضوء التي عادة ما توجد خارج سور المسجد في جهة مقابلة لإحدى واجهاته. في حين تتعدد وحدات التصاميم وتتسع في المدارس والزاوية عموديا إذ تضم كل مدرسة طابقين أو ثلاثة، وأفقيا إذ تحتوي المدارس على قاعات للصلاة والدروس وميضات وغرف الطلبة وسلاليم تؤدي إلى

الطوابق العلوية فضلا عن الصحون التي تتوسط بناياتها. وتتميز الزاوية بكبر مساحتها إذ شملت صحنا كبيرا به صهريج، يمتد شرقه جامع، تليه صومعة، وتقابله من جهة الغرب قبة، وتحتوي الزاوية على أبواب في أركانها الأربع أحدها يؤدي إلى دار الوضوء في الجهة الشمالية الغربية والأركان الثلاثة الأخرى تؤدي إلى دور يقطنها الإمام والمؤذن والناظر، واحتوت واجهتي الزاوية الجنوبية والشمالية على دارين إحداهما مخصصة لإيواء الضيوف والأخرى معدة للطبخ[1].

لقد أبدع المزخرفون على واجهات الصحن وأرضيته والصوامع وجدار القبلة بقاعات الصلاة والمداخل الرئيسية ، الذين أظهروا مهاراتهم الفنية على مواد مختلفة من رخام وزليج وجبص وخشب... يبرز أحد النصوص عند ابن مرزوق أهمية الزخرفة بالمدارس ذكر فيه : «وكلها (المدارس) قد اشتمل على المباني العجيبة والصنائع الغريبة والمصانع العديدة والاحتفال في النقش والجبص والفرش على اختلاف أنواع الزليج البديع والرخام المجزع والخشب المحكم النقش»[2]. وطبيعي ألا تقتصر هذه الزخارف على المدارس بل شملت مختلف المعالم الوقفية حيث وصف ابن بطوطة الزخرفة بالزاوية المتوكلية «لا نظير لها في المعمور في إتقان الوضع، وحسن البناء، والنقش في الجص، حيث لا يقدر أهل المشرق على مثله»[3]، ونفس الأمر ينطبق على المعالم الأخرى ولو بشكل أقل.

(١) النميري: فيض العباب، ص ص: ٢٠٦-٢٠٩.

(٢) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤٠٦.

(٣) التازي، عبد الهادي: اكتشاف موقع الزاوية المتوكلية بظاهر مدينة فاس، مجلة آفاق للثقافة والتراث، ١٩٩٨، ص:١٥٦.

- الزخرفة بالرخـام:

استعملت أحجار الرخام في فرش الأرض، وتكونت منها الأعمدة و غطت لوحاتها بعض الأماكن من الجدران وشكلت مادة أساسية وهامة في الخصات والصهاريج التي تتوسط الصحون. ومن خصوصيات الرخام لونه الأبيض -مع وجود الرخام الأسود أيضا لكن بشكل جد محدود- والصلابة والصقيل بفضل حسن ملمسه وعدم تأثير الرطوبة فيه وعدم تدهوره[١].

لذلك شهدت المعالم العمرانية التي يسيرها نظار الأوقاف استعمال مادة الرخام في زخرفتها.

فعند القيام بالإصلاحات في جامع القرويين في أيام ولاية أبي الصبر ، تم فرش أرضية أحد أبوابه الذي يقابل دار الوضوء بقطع الرخام الأزرق والأحمر تصب عليها مياه تتدفق ببيلة الرصاص[٢] كانت موجودة بالباب يغسل عليها الحفاة أرجلهم فعوضت قطع الرخام قطع الزليج التي كانت أرضية الباب مفروشة بها. وهذه القطع الرخامية من جنس ما فرش به الصحن، وفرشت بالرخام كذلك عدة بلاطات تتواجد بالفضاء المسقوف[٣] من الجامع المذكور.

ولكثرة استعمال الرخام في المدرسة المصباحية أضحت تنعت بمدرسة الرخام[٤]. فبأحجاره زينت أرضيتها وعتبات أبوابها والممر الفاصل بينها وبين أحد

(١) عدي، عزّى: الرخام، معلمة المغرب، م١٣، ص: ٤٣٢٠.

(٢) البيلة هي الخصة التي يتدفق فيها الماء.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ص: ٧٠-٧١.

(٤) ابن القاضي: جذوة لاقتباس، ج١، ص ص: ٤٥-٤٦.

أبواب جامع القرويين. كما وضعت بها بيلة رخامية ينبع فيها الماء جلبت لها من ألمرية الأندلسية، نقلتها عجلة من إحدى المراسي الشمالية للبلاد في اتجاه مدينة فاس، فوضعت في البداية بمدرسة الصهريج قبل أن تنقل في عجلة أخرى إلى المدرسة المصباحية وتثبت بها[١].

وشهدت المدارس التي سبقت المصباحية في التأسيس، كما هو الشأن بالنسبة لمدرستي الصهريج والعطارين استعمالا محدودا لمادة الرخام حيث زينت في الأولى الأعمدة الأسطوانية وعناصر معمارية أخرى. كما صنع بالمدرستين المذكورتين صهريجان زينا صحنيهما[٢].

وفرشت أرضية المدرسة العنانية أيضا بالرخام ووضعت في صحنها بيلة تمثل حوضا رخاميا تتجمع داخله المياه التي تنبع فيها. إلا أن هذه البيلة لم تحتل مركز الصحن، بل وضعت قريبة من المدخل الرئيسي لا يفصلها عن لرواق إلا مساحة قصيرة. ونصبت قطعتان رخاميتان عريضتان على القناة المائية التي تمر في المدرسة وتفصل الصحن عن قاعة الصلاة[٣].

وقد زينت البيلات الرخامية معالم أخرى مثل الجامع الكبير ومسجد الأزهر وبعض المدارس صنعت لها في شكل دائري، في حين وضع بالزاوية المتوكلية صهريج رخامي ذو شكل مستطيل[٤].

---

(١) نقلت البيلة من ألمرية إلى مرسى العرائش ثم إلى فاس، حسب ابن القاضي: المصدر السابق، الصفحتان كلاهما.

(٢) ابن مرزوق: المصدر السابق:، ص: ٤٤٨؛ الطاهري، أحمد صالح: العمارة في العهد المريني، معلمة المغرب، م١٨، ص: ٦١٨٠.

(٣) توري: البوعنانية: معلمة المغرب، م٢، ص: ١٨١٠.

(٤) نفسه: الأزهر، معلمة المغرب، م٢، ص: ٣٦٤؛ النميري: فيض العباب، ص ص: ٢٠٧-

كما وضعت بجدران بعض المدارس لوحات رخامية نقشت عليها كتابات تحمل معلومات تاريخية عن تأسيسها وتجرد الأملاك الموقوفة لفائدتها[١].

تلك هي أهم استعمالات الرخام علما انه احتل أماكن أخرى أقل أهمية، فكان يغطي أحيانا أسفل الجدران بالاشتراك مع الزليج، ويزين جانبي المحراب، ويستعمل في الأروقة وبيوت الوضوء وغرف التدريس وغيرها.

- الزخرفة بالزليـج:

الزليج قطع من تراب مطبوخ بالأفران ينعت بالمزهري[٢]. وهو إما غير مصبوغ ولونه يميل إلى الحمرة أو مصبوغ بألوان متعددة أهمها الأزرق الكحلي[٣]. ويستعمل النوع الأول -أي المزهري- في فرش الأرضيات التي تكون غير بارزة للعيان مثل قاعات الصلاة، في حين تفرش بالثاني المعروف بالتراب المطلي الأرضيات البارزة وأسافل الجدران والأعمدة والمحاريب وغيرها.

وقد استغل الفراشون[٤] والزلايجيون الألوان والأشكال الهندسية للقطع في إنجاز زخارف بالزليج. كما تم رسم كتابات على القطع التي توجد في الشريط الذي يحد لوحات الزليج من أعلاها إذ يفصلها عن أشرطة الجبص، وقد كان اللون

Vilches : art nasride et mérinide, P : 164.؛٢٠٨

(١) Aouni, Lhaj moussa: L'épigraphie et la ville, le cas de Fès à l'époque mérinide, II congreso internacional, La ciada en al-andalous y el Maghreb (Algeciras, 26-28 novembre 1999), granada, Espana, P : 84.

(٢) توري: الأزهر، معلمة المغرب، م٢، ص: ٣٦٤.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ١٥٦.

(٤) هم الحرفيون المختصون في فرش الزليج على الأرض والجدران.

الأسود هو المعتمد في وضع تلك الكتابات فوق قاعدة غير ملونة[١]،بالطريقة التي توضح ماهو مكتوب.

ومن أهم نماذج الزخارف التي أبدع فيها الزلايجيون:

. الأرضيات:

من بين الأعمال التي تمت عند بناء مسجد الأزهر بفاس الجديد فرش أرضية قاعة الصلاة بقطع المزهري المثمنة أي ثمانية الأطراف والأركان، في حين كست أرضية الصحن قطع الزليج الملونة تتوسطها نافورة ماء[٢].

كما فرشت بالزليج أرضية الزاوية المتوكلية ومدارس العطارين والمدينة البيضاء والصهريج وغيرها فضلا عن المساجد.

. الأسوار والأعمدة:

كانت معظم أسافل حيطان المعالم الوقفية مزينة بالزليج الملون. ونفس الأمر ينطبق على الأعمدة سواء المواجهة للصحون أو الموجودة داخل القاعات والغرف المسقوفة[٣]. فقد ذكر الوزان أن أعمدة أروقة العنانية كسيت بالزليج والذهب الرفيع واللازورد مما يعبر عن أهمية الزخرفة فيها[٤].

---

(١) Vilches : Art nasride et mérinide, P : 163.

(٢) توري: المرجع السابق، م٢، نفس الصفحة.

(٣) Vilches : Art nasride et mérinide, P : 163.

(٤) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٧٩.

. الصوامع:

وزينت قطع الزليج واجهات الصوامع. إذ قدم النميري وصفا لزخرفة صومعة الزاوية المتوكلية التي اندثرت بعد مدة من تأسيسها «وهي من الصوامع صنائع وأعظمها بأشغال الزليج الملون بدائع، تفوق بمحاسنها الرائقة الرائعة الديباج»[١]. كما زين الزليج صومعة المدرسة البوعنانية إذ كسى واجهاتها الأربع بأشكال هندسية تمثلت في المعينات المتشابكة التي تفصل الأقواس الموجودة فيها[٢].

. المحاريب:

كسى الزليج بعض محاريب قاعات الصلاة مثل مدرسة الصهريج التي زين محرابها زليج جميل[٣].

لقد كانت الألوان الحية التي تصبغ بها قطع الزليج، وخفة وزنه مقارنة مع الرخام، وتوفره بفاس من الميزات التي أسهمت في شيوع استعماله في الزخرفة.

- الزخرفة بالجبص:

استعملت مادة الجبص أو الجص في زخرفة البنايات. وتمثلت أهمية هذه المادة في لونها الأبيض ومقاومتها للرطوبة والحرارة وسهولة تشكيلها ونقشها[٤].

وتركزت زخارف الجبص في واجهات الصحن وقاعات الصلاة، وخاصة

---

(١) النميري: الفيض، ص: ٢٠٩.

(٢) الطاهري، أحمد صالح: العمارة في العهد المريني، معلمة المغرب، م١٨، ص: ٦١٨١.

(٣) Vilches : Art nasride te mérinide, P : 163.

(٤) وزيري، يحيى: العمارة الإسلامية والبيئة، عالم المعرفة، ع٣٠٤، ص ص: ١٠٩-١١٠.

جدار القبلة والأجزاء العليا من الأعمدة وحواشي الأبواب والنوافذ والأقواس إضافة إلى القباب والسقوف وغيرها.

ومن بين التقنيات التي اعتمدها الجباصون في زخرفة المعالم العمرانية الممتلكة من طرف الأوقاف، رقش تشكيلات نباتية وهندسية، وكتابات على مادة الجبص، إضافة إلى وضع المقرنصات التي تشبه بيوت النحل[1]، كانت توضع في أماكن محددة تلبس على عين الناظر إليها وتكسر الرتابة في البناء.

لكن واجهات الصحن تبقى متميزة في نقش الجبص ، حيث شكلت مجالا لإبداع الجباصين الذين استغلوا امتداد حيطانها وانفتاحها فوضعوا زخارف جصية في الأماكن التي تمتد بين الزليج الموجود في الأسفل والخشب الذي يوجد في الأعلى مما يلي الحلقة[2]. وكانت أحيانا لوحات الجبص تغطي ثلاثة أرباع واجهات الصحن، كما هو الأمر في مدرستي العطارين والبوعنانية. في حين خفت كثافة هذه الزخارف بالمعالم الأخرى، إذ لم تتجاوز في بعضها الأشرطة الأفقية التي تعلو الزليج وإطارات الأبواب والنوافذ. وهذا الأمر –قلة الزخرفة– تجسد بصفة خاصة في المساجد لعامل ديني.

كما أفرغ الجباصون طاقاتهم الفنية في جدار القبلة داخل قاعات الصلاة، باعتباره وجهة للمصلين، فتم تشكيل الجبص في المحراب والأماكن المحيطة به، فضلا عن الأشرطة التي تمتد كحزام يعلو زخارف الزليج أو الرخام، أو التبليط بأسوار القاعة وأعمدتها. وعادة ما كانت قاعات الجوامع والمساجد توفر لها قباب وأقواس تغنيها الزخارف الجبصية فتضفي عليها طابعا جماليا.

---

(١) نفسه: ص: ١٤٧.

(٢) الحلقة هي المكان المفتوح بسطح البناية غالبا ما يتخذ شكلا مربعا يطل على أرضية الصحن.

وشملت زخارف الجبص وحدات أخرى بالمعالم الوقفية مثل المداخل الرئيسية لبعض المعالم كالمدرسة البوعنانية وقاعات التدريس والأروقة وغرف الطلبة وبيوت الوضوء داخل المدارس ودور الوضوء خارجها وخارج المساجد. حيث اتسمت الزخارف في الأماكن المشار إليها بكونها خفيفة وبسيطة فرضتها نوعية هذه الأماكن ومواقعها وضيق مجالها أحيانا.

- الزخرفة بالخشب:

اعتمد المهتمون بزخرفة المعالم الحبسية أيضا على مادة الخشب التي كان لها دور في البناء والزخرفة معا، ومن مميزاتها سهولة وضع الزخارف عليها ولونها الغامق الذي تزيده الدهون جمالا، وتناسب وزنها وحجمها مع البناء، إضافة إلى طول المدة التي تعمرها في البنايات إذا ظلت محفوظة من مظاهر تآكلها وتدهورها كاندلاع حريق وكثرة الرطوبة. وعموما يعد خشب الأرز النوع المتناسب مع الأنواع الأخرى للبناء وقد حمل زخارف من نقوش وأصباغ[1].

واحتلت مادة الخشب أماكن محددة في البنايات أضفت عليها طابعا جماليا، فشغلت أجزاء من حيطان الصحون فوق الأعمدة وفي الحلقات والمداخل والنوافذ والأطراف الفاصلة بين الأروقة والصحون وبين هذه الأخيرة وقاعة الصلاة إضافة إلى السقوف وغيرها.

كما صنعت عوارض خشبية تفصل بين الأعمدة والأسوار من جهة، وبين الأقواس من جهة ثانية، مما أضفى رونقا على واجهات الصحون المزينة بتلك الزخارف في الأجزاء العليا منها. حيث توجد أفاريز خشبية تدور على الحلقة من

(١) Ahmed, Khaneboubi : Les premiers sultans mérinides histoire politique collection : et sociale, histoire et perspectives méditerranéens, éditions l'Harmattan, Paris, 1987 P 193.

أعلى السور بشكل دقيق ومنتظم، تزيد من جماليتها النقوش الموضوعة عليها والدُّهون التي تزيد من بريقها. وعادة ما تكون مادة الخشب المستعملة أسفل حلقات الصحون تغطي البناء فقط عكس العوارض لخصوصية المكان. إذ أن الحلقة معرضة أكثر للتدهور والتآكل بسبب عوامل الحرارة والرطوبة مما يستدعي استعمال الخشب في التزيين فقط لا في البناء.

زينت واجهات الصحون أيضا المشربيات أو الشبابيك الفاصلة بين الصحون والأروقة، والتي لها وظيفة الجدران، لكنها في الشكل مخرومة عبارة عن ستائر، تمكن بالإضافة إلى دورها التزييني من تهوية وتشميس داخل الغرف الموجودة خلف الأروقة، مع المحافظة على حرمتها إذ لا يتمكن المتواجد من داخل الصحن من تمييز ما يوجد داخل الغرف. ووضعت المشربيات في أماكن أخرى مثل تلك التي تحتل ما بين الأبواب الرئيسة والصحون في مدارس البوعنانية والعطارين والصهريج، إضافة إلى النوافذ. وقد صنعت المشربيات أساسا من الخشب المخروط الذي توصل أطرافه فيتحول إلى شبابيك تؤطرها الأسوار وعوارض الخشب المنحوتة والمصقولة والمدهونة.

وكانت السقوف كذلك مجالا لإبداع الصناع الذين لبسوا العوارض والألواح الخشبية بالأصباغ والأدهان ذات الألوان الغامقة والفاتحة، رسمت عليها أحيانا تشكيلات نباتية وهندسية. وصنعت في سقوف المعالم الوقفية قباب أو قُبب مقعرة من الداخل في السقف ومقببة من الخارج خلف السقف، أنجزها الحرفيون بتقنيات الحفر أي النقش والتشكيل والتركيب، مما أعطاها جمالا في عيون الناظر إليها. وبعض القباب كانت كبيرة الحجم مثل تلك الموجودة في المدخل الرئيسي للعنانية بين الباب ونهاية السلاليم المؤدية إلى داخل المدرسة. في حين تميزت قباب أخرى

بصغرها بناها الصناع في العديد من المعالم العمرانية الحبسية مثل الزاوية المتوكلية[١].

وقد احتوت المعالم الوقفية على زخارف وضعت على الخشب بعد صنعها من طرف النجارين، سوف يتم تناول الحديث بشأنها لاحقا اعتبارا لبعدها عن تخصص البناء مثل المنابر والكراسي وغيرها.

- الزخرفة بالحجر:

رغم ندرة الزخرفة بهذه المادة التي اعتمدت أحيانا في البناء، فإن أهمية إحدى المعالم الوقفية التي بنيت وزخرفت بها، تستدعي الحديث عنها فقد بني في آخر سنة من حكم أبي عنان المريني في ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م جامع الزهر الموجود في فاس لجديد، له مدخل زينته الحجارة ذات لون يميل إلى الصفرة المنتظمة، منقوشة ومنحوتة بزخارف نباتية وهندسية خفيفة[٢].

ولازال المسجد قائما بجوار سور القصر السلطاني الحالي الموجود خارجه من الجهة الجنوبية الشرقية، متميزا بانخفاض مستوى أرضيته عن أرضية الشارع الذي يمر على بابه بحوالي ٧٠ سنتمترا، إذ ينحدر الداخل إليه في أدراج توجد على جانبي الباب الرئيسي.

تلك هي أهم الزخارف التي وضعت على عناصر البنايات، تحمل مضامين نباتية وهندسية وكتابية، تم إنجازها وفق تناسب كل نوع من الزخارف مع وظائف

---

(١)- بوطالب، عبد الهادي: وزير غرناطة، ص: ٣٤؛ الجزنائي، أبو الحسن علي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ص: ٥٠؛ النميري: فيض العباب، ص:٢٠٨.

(٢) توري: الأزهر، معلمة المغرب، م٢، ص ص: ٣٦٣-٣٦٤؛ Aouni : L'épigraphie et la ville, P : 84.

المعلمة وأهمية موقع المكان داخل تلك المعلمة، ومدى تناسب الزخارف مع المادة المزخرف عليها.

ويمكن استخلاص كثرة الكتابات الدينية التي تكمن أساسا في آيات وسور القرآن الكريم بقاعات الصلاة وخصوصا واجهة القبلة دمجت معها زخارف نباتية وهندسية خفيفة. وحملت لوحات تأسيس المدارس كتابات تاريخية أنجز بعضها على الجبص والبعض الآخر على الرخام، واحتلت مكانا متميزا بقاعة الصلاة أو إحدى قاعات التدريس. وشملت الكتابات التاريخية أيضا الزخارف الموضوعة بالصحون والمداخل الرئيسية ، تشير إلى السلطان المؤسس أو تاريخ التأسيس... إلا أن الكتابات الأدبية هي التي كثرت خارج قاعات الصلاة وخاصة في الصحون والمداخل الرئيسية باستثناء المسجد. وتمثلت أساسا في أبيات منظومة وفي شعارات الدولة[1].

وتنوعت وتعددت المضامين الهندسية والنباتية بالمعالم الوقفية كانت مادتها الزليج، لعبت فيها الألوان الحية وأشكال القطع دورا متميزا في الزخرفة. في حين كثرت الزخرفة النباتية التي تجسدت في التوريق على الجبص بشكل أساسي وعلى الخشب والزليج بشكل أقل. مع احترام قاعدة الدمج والمقابلة بين أنواع الزخارف الثلاث الهندسية والنباتية والكتابية.

(١) توري: البوعنانية، معلمة المغرب، م٢، ص: ١٨١٠؛ الطاهري: العمارة في العهد المريني، معلمة المغرب، م١٨، ص: ٦١٨٢، Vilches : Art nasride et mérinide , PP : 162-164؛ Aouni : L'épigraphie et la ville, P : 85.

المبحث الثاني

التجهيزات والخدمات

بعد تمام أعمال البناء والزخرفة بمعلمة معينة، يشرف الناظر باعتباره مسؤولا عن التسيير بمدها بحاجياتها من ماء وإنارة وفرش وأغطية وأطعمة وغيرها. وذلك حسب الدور الذي تقوم به كل معلمة وحجمها وعدد الواردين عليها. ومادامت تلبية هذه الحاجيات تستدعي موارد مالية دائمة وقارة، فإن تعيين أوقاف كافية من أراضي وبساتين ودكاكين ومرافق اقتصادية تكترى كان الحل الأنسب لذلك.

وقد اعتمد النظار في تجهيز المعالم التي يديرونها وخدمة المتوافدين عليها على تشغيل حرفيين وصناع لديهم أحيانا، واقتناء الحاجيات من أسواق المدينة أحيانا أخرى. لهذا سيتم التركيز في هذا المبحث على التجهيزات والخدمات التي قدمت فيها هيأة الحرفيين والصناع أعمالها بإشراف وتمويل من الأوقاف.

المطلب الأول

التجهيزات

تجهزت المعالم الوقفية بما تحتاج إليه من مياه وإنارة كما صنعت لها المنابر والكراسي والخزانات وغيرها.

- جلب الماء:

الماء مادة حيوية في تدبير شؤون البنايات الوقفية، فبه تتم الطهارة والنظافة. ويعتمد عليه في الشرب والطبخ وغيره. وقد زودت الأنهار والعيون المعالم الحبسية بحاجياتها المائية عن طريق مد قنوات تمر منها أو تصل إليها انطلاقا من مصادرها حاملة لكتل مائية. وقد اعتمدت بعض المعالم على مياه الأنهار بحكم موقعها كالزاوية المتوكلية التي كانت تقع على وادي حمص[1] (وادي فاس) والمدرسة المتوكلية (البوعنانية) التي يمر بوسط صحنها فرع من فروع الوادي المذكور. في حين مدت المعالم الموجودة داخل النسيج الحضري لفاس العتيق بمياه العيون جلبت لها عبر قنوات مطمورة تكونها القواديس المتسلسلة إلى أن تصل إلى المعلمة. ففي فترة ولاية الحدودي شؤون جامع القرويين في عهد يوسف بن يعقوب مدت قناة جلبت الماء إلى جامع القرويين من عيون ابن اللصادي[2] التي تواجدت خارج باب الحديد، فمرت القناة برحبة الزبيب التي بنيت بها سقاية تجري بماء القناة، ثم مرت حتى وصلت إلى موقع باب الحدودي الذي بني في إطار الإصلاحات التي شهدها الجامع

(١) النميري: فيض العباب، ص: ٢٠٦.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٦٦.

الجامع في الجهة القبلية سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩١م. لكن إغلاق الباب لاحقا بأمر سلطاني[١]، أدى إلى تحويل الماء المجلوب إلى موقع آخر بالجامع أو غلق القناة نهائيا. وقد تكون السقاية التي أحدثت في الركن الشمالي الشرقي في فترات لاحقة للعصرين المريني والوطاسي مزودة بماء هذه القناة. وتم مد جامع الأندلس بدوره بماء مصدره موجود بعيون خارج باب الجديد قبل العصر المريني. وعلى إثر ما عرفته فاس من أزمات في أيام المجاعة والفتنة (٦١٧-٦٣٧هـ) خربت القناة المائية لجامع الأندلس ثم أصلحت فاستعادت حيويتها سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م في عهد أبي الربيع، رغم أن جامع الأندلس كان قد تزود بماء وادي مصمودة المار بعدوة الأندلس في أيام ولاية ابن مسونة لشؤون الجامع[٢].

وبعد بناء مدرسة الصهريج في عدوة الأندلس أيضا قريبا من جامعها سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م صنعت قناة مائية مطمورة تمتد من خارج باب الحديد إلى المدرسة[٣]. ولعل هذه القناة قد زودت أيضا ملحقات المدرسة بالماء،وهي السقاية ودار الوضوء وفندق الطلبة ومدرسة السبعيين. ولم تسعف الكتابات في التعرف على مصادر وأشكال تزويد المعالم الأخرى بالمياه لكن مياه وادي فاس كانت أساسية في تزويد معالم فاس الجديد والأحياء العليا لعدوة القرويين. في حين كانت مياه العيون معتمدة في جلب الماء إلى معالم عدوة الأندلس والأحياء السفلى بعدوة القرويين. وفي كلتا الحالتين كان القنويون[٤] يوظفون مهارتهم الحرفية في الاتجاهات والمسافات التي

(١) التازي: جامع القرويين، ج٢، ص: ٣١٨.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ص: ٧٦-٧٧.

(٣) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص: ٤١٢.

(٤) هم الحرفيون المختصون في مد القنوات المائية وإصلاحها. هذا ما ورد مثلا عند ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤٤٨.

تسلكها القنوات، ومستويات الحفر وأشكاله، وحجم القواديس، معتمدين على تقنيات السطح الطبوغرافية وضغط المياه الجارية لضمان التزود المستمر والكافي بالمياه.

- الإنـــارة:

تمثلها الأشكال والوسائل المعتمدة في إضاءة وإسراج البنايات الحبسية. وأهمها صناعة الثريات التي توظف ليلا والشمسيات نهارا.

.الثريـــات:

دخلت في صناعتها مادة النحاس التي صنع منها هيكلها، ومادة الزجاج التي تتشكل منها أكوابها، ومادة الحديد التي تصنع منها السلاسل والأعلاق التي تربطها مع السقف، فتعلق في أماكن قريبة من المحراب على البلاطات الرئيسية، وتسرج بالزيت بوضعه في الأكواب وإيقاد النار فيه.

وقد عرفت المرحلة المرينية الوطاسية صناعة ثريات قليلة مقارنة مع الفترات السابقة. كما طرحت قضية إسراج الثريات نقاشا بين الفقهاء لما تتطلبه من كميات كبرى من الزيت، إذ كانت الثريا الكبرى بجامع القرويين تتطلب في إيقادها قنطارا وسبعة قلل من الزيت في ليلة واحدة، وما يسببه ذلك من كثرة الإنفاق وإسراف وتبذير لمال الوقف[1].

ومع ذلك صنعت ثريات أكبرها التي وضعت في الجامع الكبير بفاس الجديد على يد المعلم الحجازي الذي قام ببنائها بالجامع سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٩م، بعد فراغه

(١) ابن الخطيب الإحاطة، ٤، ص: ٢٨.

من صنعها فبلغ وزنها تسعة قناطير وخمسة عشر رطلا[١]. وقد تطلبت تقنيات صنعها دراية بالهندسة الصناعية، إذ يبدأ صانعها بإنشاء قاعدة دائرية كبيرة تتصل بها قطع مسبوكة دائرية يزداد صغرها مع الارتفاع من قاعدة الثريا إلى أعلاها، وتحتوي كل دائرة على أماكن دائرية فارغة توضع فيها الأكواب، كما تزخرف الثريا في الأجزاء الظاهرة منها سواء بالخرم أو بتلحيمها ببعض الأشكال الجميلة والبسيطة.

واعتمدت عمليات الإضاءة على أدوات أخرى مثل الحسكات التي توضع عليها الشموع[٢]، والفوانيس التي يحملها الحراس في أيديهم والفنارات التي كانت تسرج في أعلى الصوامع[٣]، ولعل نظار الأوقاف كانوا يحصلون عليها جاهزة من أسواق المدينة.

.الشمسيـات:

تستضيء المعالم العمرانية عامة في أوقات النهار بالشمس. حيث تعم أشعتها المناطق المنفتحة على الفضاء الخارجي مثل الصحون والأبواب والنوافذ والأروقة. في حين تمكن الشمسيات المصنوعة من الزجاج العراقي ذو الألوان المتعددة من إضاءة المناطق المحيطة بالمحراب داخل قاعات الصلاة، إذ كانت توضع في الفتحات التي تعلو المحراب تحيط بها لوحات الجبص المزخرفة[٤]. وتتميز الشمسيات بجمالية منظرها وقيمة الزجاج الذي صنعت منه وتفاعلها مع أشعة الشمس من خلال دور

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص: ١٦٢، ١٨٨.

(٢) الوزاني، المهدي: تحفة أكياس الناس بشرح عمليات فاس، تقديم وإعداد : هاشم العلوي القاسمي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.، ص: ٤١٣.

(٣) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج١، ص: ٥٤.

(٤) يشير النميري إلى جمالية الشمسيات بمسجد داخل الزاوية المتوكلية، فيض العباب، ص: ٢٠٦.

الألوان في ذلك. وقد عرفت المعالم العمرانية انتشار الشمسيات بها منذ فترات مبكرة من تاريخ مدينة فاس المؤسسة في نهاية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. وقد تمثلت الإضافة المرينية في انتشار الشمسيات بالمعالم العمرانية عموما ومنها الحبسية من مساجد ومدارس وزاوية وغيرها.

- المنابر والكراسي:

هي منصات يجلس عليها الخطباء لإلقاء خطب الجمعة والعلماء لتقديم دروسهم ومواعظهم بالمساجد والمراكز العلمية.

.المنابر:

اشتقت كلمة المنبر من نبر وانتبر، بمعنى ارتفع. لذلك فالمنبر منصة مرتفعة تتسع لوقوف وجلوس الخطيب أيام الجمعة[١]. وقد تم الشروع في صنع المنابر منذ عهد الرسولﷺ. واختلف الفقهاء والعلماء المهتمون بالسيرة النبوية حول اسم صانع منبره[٢]. واعتبارا لكون المنابر تصنع للجوامع التي تقام بها الخطب، صُنع منبر للجامع الكبير على يد المعلم الغرناطي الرصاع المعروف بالأبانوسي الذي استغرق في إنشائه سنة واحدة بين رمضان ٦٧٧هـ ورمضان ٦٧٨هـ[٣]. وعند تأسيس المدرسة البوعنانية صُنع لجامعها منبر يتكون من تسع درجات أُعد من خشب الأبنوس الجيد وتم ترصيعه بالعاج الذي كان يجلب من بلاد السودان[٤]. وهو

(١) وزيري، يحيى: العمارة الإسلامية والبيئة، عالم المعرفة، ع٣٠٤، ص: ١٤٣.

(٢) الخزاعي، التلمساني: تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧٢٤.

(٣) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص: ١٦٢.

(٤) لمليح، السعيد: المدارس المرينية ودورها الفكري في المغرب، نموذج مدارس مدينة فاس، دبلوم الدراسات العليا، إشراف: هاشم العلوي القاسمي وعادل نجم عبو، كلية الآداب والعلوم الإنسانية

يحتوي على زخارف استخدمت تقنيات النحت والنقش والدهن، كتبت بواسطتها على الخشب الآيات القرآنية التي تحيط بها زخارف نباتية في الواجهات البادية للعيان.

.الكراســي:

هي منصات لجلوس الفقهاء والعلماء بقصد تقديم دروس العلم والوعظ. تتميز عن المنابر بضعف ارتفاعها على مستوى الأرض، وبساطة الصناعة فيها، وتعددها داخل كل مركز علمي بتعدد التخصصات التي تلقى فيها الدروس للطلبة. وقد تعددت الكراسي التي صنعت لإلقاء الدروس بعد تأسيس المدارس واستمرار أداء المساجد لهذه الوظيفة العلمية. فإضافة إلى فجامع القرويين الذي يعتبر مركزا علميا متميزا أُسندت إلى جدرانه وأعمدته ثلاثة عشر كرسيا بما فيها كرسيا الآذان ورواية الحديث يوم الجمعة[1]. وشهدت الفترة المرينية الوطاسية أيضا صنع كراسي بالمعالم الأخرى كالجامع الكبير وجامع للاّ غريبة بفاس الجديد[2] ومساجد المدينة العتيقة. وقد تكون الفترة المذكورة عرفت أيضا إحداث كراسي جديدة بالمساجد التي كانت مراكز علمية منذ عهود مبكرة خاصة جامعي القرويين والأندلس.

وبالنظر إلى تقنيات صناعة الكراسي فهي بسيطة تتم بتحويل النجارين الألواح

بفاس، ١٤٠٨-١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨-١٩٨٩م ، ص: ١٤٥؛ العلوي، عبد العزيز: العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني وإمبراطورية مالي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد٥، ١٩٨٩، ص: ٦٤.

(١) لمليح: المرجع السابق، ص: ٧٤.

(٢) وجود خزانة الكتب بهذا الجامع دليل على صناعة الكراسي له، الناصري: الاستقصا، ج٤، ص: ٩٠.

الخشبية إلى كراسي تختلف أشكالها وأحجامها[١]، قد يحتوي بعضها على جنبات وأريكة تريح جلوس المدرس.

- الخزانات والمرافع:

شكلت بدورها تجهيزات صنعت من مادة الخشب وقد احتوت الخزانات على الكتب الموقوفة لفائدة المؤسسات العلمية الحبسية، في حين كانت المرافع توضع عليها أحذية المصلين.

.الخزانات:

تحتوي المراكز العلمية بفاس على عدة خزانات ضمت مصاحف وكتب معدة للقراءة والمطالعة وصل عددها ٣٣ خزانة[٢]. ومن أهمها التي أقيمت بأمر من السلطان أبي عنان سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٥٠م بالجهة الشرقية من القرويين، في أعلى المستودع. ولهذه الخزانة باب جميل حمل زخرفة كتبت عليه عبارات توضح دور الكتب الموضوعة داخلها «جعلها (أبو عنان) وقفا مؤبدا لجميع المسلمين... على طلب العلم وإظهاره وارتقائه واشتهاره وتسهيلا لمن أراد القراءة والنسخ منها (الكتب) والمطالعة والمقابلة» وبقيت الخزانة قائمة للأغراض التي وقفت من أجلها في مكانها بالجامع إلى أن تم نقلها في العهد السعدي إلى جهة القبلة[٣].

---

(١) أشار الوزان إلى وجود أشكال وأحجام مختلفة للكراسي المسندة إلى جدران جامع القرويين، وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٧٧.

(٢) التازي، عبد الهادي: جامع القرويين، ٣، ص: ٤٥٤.

(٣) الدباغ، محمد بن عبد العزيز: خزانة القرويين وأثرها في حفظ التراث الإسلامي: أشغال ندوة «جامعة القرويين وآفاق إشعاعها الديني والثقافي» نظمها بيت آل الحبابي بالرباط، منشورات جامعة القرويين، ١٩٩٦، ص: ١٠٧.

وأسس السلطان أبو سالم خزانة بغربي جامع الأندلس، كما وضعت للكتب خزانة بجامع للاغريبة بفاس الجديد بإشراف من مؤسس الجامع أبي عبد الله الطريفي[١].

احتوت المدارس بدورها على خزانات تودع بها المصاحف والكتب المختلفة، إذ حبس السلطان أبو يوسف يعقوب أحمالا منها جلبها من الأندلس وضعت بمدرسة الصفارين، التي تدعى أيضا على اسمه باليعقوبية، والأمر نفسه بالنسبة للسلطان أبي الحسن الذي حبس مصاحف وكتبا على المدارس التي نشطت عمارتها في عهده[٢].

وصنع الحرفيون الخزانات المذكورة آنفا بوضع الإطارات والرفوف والأبواب من الألواح الخشبية تضم داخلها الكتب وتغلق بالأقفال التي يحتفظ القيمون[٣] بمفاتيحها. وقد زينت واجهات الخزانات زخارف متنوعة.

. المرافـع:

هي ألواح خشبية توضع على ارتفاع من أسوار المسجد داخل قاعة الصلاة تخصص لوضع أحذية المصلين فوقها، وصناعتها بسيطة. ومع ذلك فقد كلفت النجارين بذل مجهود في القياس وقطع الألواح ونحتها ودهنها ثم تركيبها على الجدران.

---

(١) لمليح: المدارس المرينية، ص: ٢٢٦؛ الناصري: الاستقصا، ج٤، ص: ٩٠.

(٢) لمليح: المرجع السابق، ص: ٢٢٤؛ أسكان، الحسين: الإنفاق على التعليم بمدينة فاس بين القرن السادس والثامن الهجري، أشغال ندوة «المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن امسيك، البيضاء، ص: ٢٤٩.

(٣) القيّمون جمع لقيم وهو المكلف بإعارة كتب الخزانة للطلبة.

وورد في المعيار عند الونشريسي أن الفقيه عيسي بن علال المصمودي «سئل عن المرافع التي تعمل في المساجد ليعمل الناس عليها أخفافهم ونعالهم هل يعمل ذلك من مال الحبس أم لا؟ وكان السائل... أبو زيد الجادري (ت٨١٨/ ١٤١٥م) فأجاب بأن ذلك منفعة للحبس لا بأس به»[١].

والسائل من مؤقتي مدينة فاس والمجيب من فقهائها. كلاهما عاش في الفترة المرينية. ونص الجواب يحمل إثباتا على صناعة المرافع من طرف مؤسسة الأوقاف.

وقد تجهزت المعالم الوقفية أيضا بأشياء مصنوعة أخرى، منها ما هو معد من مادة الصفر مثل التفافيح التي توضع في أعلى الصوامع، وصفائح الصفر التي تغشى بها الأبواب، ومنها ما تم تهييئه من مواد معدنية أخرى كصفائح القصدير التي غشيت بها سقوف الزاوية المتوكلية[٢].

(١) الوزاني، المهدي: تحفة أكياس الناس، ص: ٤١٣.

(٢) النميري: فيض العباب، ص ص: ٢٠٦-٢٠٩.

المطلب الثاني

الخدمات

احتضنت المعالم الحبسية نزلاء قدمت لهم خدمات متعددة من طرف العاملين فيها، حيث تمت أعمال طبخ الأطعمة ومداواة المرضى وما تطلبه ذلك من السهر على النظافة والحراسة وغير ذلك للمعالم المذكورة. وكانت هذه الأعمال تتم تحت مسؤولية النظار الذين يتكلفون بتوفير ما تتطلبه الخدمات من حاجيات ولوازم، ويراقبون ويشرفون على العاملين.

- طبخ الطعـام:

كان ضيوف الزاوية المتوكلية ونزلاء المارستان وطلبة المدارس في حاجة إلى إطعامهم، وتميزت الزاوية عن المعالم الأخرى في هذه الوظيفة، إذ كانت الإماء الموقفات على تلك المعلمة تقمن بتهييء الأطعمة[١].

فقد كانت الدار المعدة للطبخ من بين ما احتوته بناية الزاوية[٢] وكان المتوافدون على الزاوية يتناولون الأطعمة التي تهيأ وتقدم لهم في قاعة خاصة بذلك، حيث تمثل دور الزاوية الأساسي في «الإرفاق بالواردين وإطعام المحتاج من القاصدين»[٣].

وعين الناظر بمارستان سيدي فرج طباخين أشرفوا فيه على إعداد الطعام للمرضى والغرباء الذين ينزلون هناك، فقد كان بإمكان كل غريب عن المدينة

---

(١) نفسه، ص: ٥٠٤.

(٢) نفسه، ص ص: ٢٠٨-٢٠٩.

(٣) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤١٣.

النزول في المارستان مدة ثلاثة أيام يقدم له الطعام ويتم إيواؤه[١]. ولعل إحدى غرف المارستان كانت تتم فيها أشغال الطبخ ،في حين تقدم الوجبات الغذائية للمرضى والغرباء بالغرف التي يأوون داخلها.

وبحكم أهمية الأطعمة المطبوخة بالزاوية والمارستان، وحاجة بعض الفئات التي تنزل خارجها إلى الإطعام كطلبة المدارس والمرضى بمستشفى الجذمى، والفقراء والمساكين، فمن الراجح تزويد هؤلاء بكميات من تلك الأطعمة أو ببعض الأنواع منها على الأقل كالخبز الذي كان يُتصدق به يوميا[٢].

لقد كان النظار بالمعلمتين المذكورتين يقومون بالإشراف على أعمال الطبخ، إذ يقتنون ما تحتاجه تلك الأعمال من مواد تدخل في إعداد الوجبات وأواني تهيأ وتقدم فيها الأطعمة.

- التطبيب والصيدلة:

هما خدمتان متداخلتان، إذ كان الأطباء يفحصون المرضى والصيادلة يعدون لهم الوصفات. لكن المصادر كانت لا تميز بين التخصصين وتنعت العاملين فيها بالأطباء، إذ عيّن عدد منهم في البيمارستان داخل المدينة والمستشفى في ظاهرها. فقد قيل بأن هذا الأخير كان لا ينقص في تجهيزاته عما احتوى عليه المارستان. وهذا ما وضحه الناصري حين حديثه عن يعقوب بن عبد الحق المريني الذي عمل بعد استقامة الأمر له بأن «بنى المارستان للمرضى والمجانين ورتب لهم الأطباء لتفقد

(١) المنوني : مؤسسات خيرية وإحسانات مادية، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٧٣.

(٢) الناصري: الاستقصا، ج٣، ص: ٦٥؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤١؛ لوتورنو: فاس قبل الحماية، ج١، ص: ١١٠، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص: ٦٤٨.

أحوالهم وكذا فعل بالجذمى والعمى والفقراء»[١]. وقد جدد أبو الحسن المريني رسم المارستان «بتعيين الأطباء والمسيرين لشؤونه من نظار وحراس وطباخين وممرضين وغيرهم»[٢]. ونفس الأمر بالنسبة لابنه أبي عنان إذ قام «بتعيين الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى وتعيين الأطباء لمعالجتهم والتصرف في طبهم»[٣].

لذلك يتضح أن التطبيب كان من أهم الخدمات التي احتضنها المارستان والمستشفى في فترة يعقوب. لكن في فترة أعقابه أبي الحسن وأبي عنان اقتصرت خدمة التطبيب على المارستان. ولعل هذا الأمر يُفسر بأن مرض الجذام الذي كان يعالج منه نزلاء المستشفى لم يعد مطروحا في عهد السلطانين الأخيرين. وقد نص رسم المارستان على تعيين أطباء وممرضين يساعدونهم في تطبيب النزلاء من المرضى.

لقد عالج الأطباء بالمارستان أمراضا جسدية وعقلية وشملت في بعض الفترات الأمراض النفسية أيضا، حيث كان يتردد على النزلاء موسيقيون بانتظام مرة أو مرتين في الأسبوع يقدمون لهم نغمات تساهم في تخفيف الضغط عليهم وفي معالجتهم، بل إن المارستان تداوت فيه حتى اللقالق التي تعرضت لكسر أو أصيبت بأذى[٤].

واختص مستشفى الجذمى في معالجة الأمراض المعدية التي تنتقل عدواها من شخص إلى آخر، في مقدمتها مرض الجذام الجلدي. فكان المصابون به يعزلون في حي خاص بهم قصد معالجتهم ومحاصرة المرض الذي أصيبوا به. وهذا ما حدث

(١) الناصري: المرجع السابق، ٣، نفس الصفحة.

(٢) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤١٥

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص: ٦٤٩.

(٤) المنوني: المرجع السابق، م٣، نفس الصفحة.

للجذمى الذين كانوا يستقرون بحي خارج المدينة من جهتها الشرقية ثم نقلوا بعد ذلك إلى غربها[١]. ومعالجتهم تمت اقتداء بما حدث في فترة الخلافة الراشدة. إذ تم عز الجذمى في عهد عمر بن الخطاب (ض) [٢].

ومن غير المستبعد أن الناظر على المارستان الذي كان أحيانا يقوم أيضا بمهمة التطبيب[٣] هو من يتولى تسيير شؤون المارستان والمستشفى. لذلك حرص على توفير الوسائل والتجهيزات للأطباء وما يحتاجونه من أدوية وأعشاب ومراهم يعدون بها الوصفات. وكان موقع المارستان مساعدا في تلبية حاجياته الطبية فهو منفتح على حي العطارين الذي كانت به دكاكين خاصة بالأطباء والصيادلة، والقريب من حي العشابين الذي تقتنى منه مواد الوصفات.

- التنظيف:

كان الهدف من هذه الخدمة المحافظة على نظافة فضاءات المعالم الوقفية ومنافعها، وتمت أساسا بالكنس، إذ يدعى المكلف بالتنظيف الكناس نسبة إلى المكانس أو الشطاطيب . وقد يجمع الكناس بين مهمة التنظيف وأعمال أخرى مثل الحراسة وإيقاد المصابيح وغيرها[٤]. ويتخصص في هذه المهمة ببعض المعالم الحبسية منظفون وهو ما حصل بالمارستان الذي عين به عدد منهم إلى جانب طباخين

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج١، ص ص: ٣٤-٣٥.

(٢)- بنعبد الله، عبد العزيز: العلوم الكونية والتجريبية في المغرب (كيف تطورت خلال ألف عام)، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعةالأولى،٢٠٠٠.، ص: ٧٣.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢، ص ص: ٥١٥-٥١٦؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١، ص: ٣٠٣.

(٤) الونشريسي،أحمد بن يحيى الونشريسي، أبو العباس: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، ج٧، ص ص: ١٧-١٨.

وأطباء، وبالزاوية المتوكلية التي كانت فيها الإماء المتزوجات بالعبيد عينوا برسم تنظيفها والقيام بأعمال الإطعام والخدمات الأخرى[١]. كما كانت الجوامع وبعض المدارس محتاجة إلى متخصصين في التنظيف لكبرها وكثرة النازلين بها والمتوافدين عليها.

لقد تطلبت أعمال التنظيف عدة أدوات ومواد أهمها المكانس التي كانت توضع بالمستودعات[٢] وتكون تحت تصرف المكلف بالتنظيف، إضافة إلى المياه التي تنظف بها الصحون ودور الوضوء والميضات وغيرها. فضلا عن مادة الصابون لتنظيف اللباس ووسائل الفرش والأغطية بالزاوية والمارستان[٣]. ولعل فئة الطلبة كانت مساهمة في تنظيف المدارس التي تأوي بها.

- الحراســة:

يدعى المكلف بها الحارس أو البواب، ويقوم بفتح الأبواب وغلقها وحفظ الحصر والأشياء الثمينة التي تتواجد داخل المعلمة من أموال وثريات وغيرها. إذ احتوت الجوامع على مستودعات لحفظ الأموال التي توضع تحت تصرف الناظر مثل جامع القرويين الذي أجاز الفقهاء تعيين من يحرسه[٤]. لذلك كان شخص يطوف فيه قبل غلق أبوابه ليراقب خلوه من أي أحد قد يسرق ما به من أشياء ثمينة

(١) رابطة الدين، محمد: البيمارستان، معلمة المغرب، م٦، ص: ١٩٦٥؛ النميري: فيض العباب، ص: ٢١٣.

(٢) النميري: المصدر السابق، ص: ١٦٨، لمليح: المدارس المرينية، ص: ١٦٨؛ نفسه، ص: ٢٢٥.

(٣) الإشارة واضحة إلى تنظيف الخدم لملابس المرضى بالمارستان عند رابطة الدين محمد، المرجع السابق، م٦، ص:١٩٦٥.

(٤) وردت نازلة تجيز تعيين من يحرس جامع القرويين لما يحتويه من ثريات الصفر، عند الونشريسي: المصدر السابق، ج٧، ص:١٧١.

ثم يغلق أبوابه ويحتفظ بمفاتيحها. واستدعت بعض المعالم نوم الحراس ليلا داخلها تجنبا لأي سطو أو أذى قد تتعرض له. وكانت معالم أخرى لا تستدعي نوم الحارس داخلها بحكم تواجد نزلاء بها مثل الطلبة في المدارس أو لعدم توفرها على أشياء ثمينة قد تكون هدفا للسرقة. وساهمت الدور التي يقطنها الحراس أو غيرهم من مؤذين وأئمة ونظار في سلامة المعالم الحبسية من السرقة وهذا الأمر تميزت به الزاوية المتوكلية[١].

- وقد المصابيح:

يعرف صاحبها بالوقاد[٢] الذي قد يجمع بينها وبين خدمة أو خدمات ذكرت آنفا. وبرزت هذه الخدمة في المساجد الجامعة بصفة خاصة لكبرها وما احتاجته من وقد الثريات والحسكات التي توضع فيها الشموع[٣] والفوانيس وغيرها. والإشارة واضحة إلى قيام شخص بإيقادها ليلا بجامع القرويين كان يتسلم الزيت من الناظر ويضعه في أكواب الثريات وفي أدوات الإنارة الأخرى ليوقد النار فيها فيستضيء الجامع لتؤدى به الأنشطة الدينية والعلمية. ثم يقوم بعد انتهاء صلاة العشاء بإطفائها ليعاود إيقادها فجرا. إلا أن الثريات الكبرى كانت عادة ما توقد في مناسبات خاصة فقط تجنبا للإسراف في استعمال الزيت[٤]. وعلى غرار القرويين كانت الجوامع الأخرى مثل الأندلس والجامع الكبير بفاس الجديد تتطلب هي الأخرى قيام شخص بإيقاد مصابيحها.

(١) النميري: المصدر السابق، ص ص: ٢٠٦-٢٠٩.

(٢) الونشريسي: المصدر السابق، ج٧، ص ص: ٨٥-٨٦.

(٣) الوزاني: تحفة أكياس الناس، ص: ٤١٣.

(٤) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص ص: ٨٥-٨٦، ١٧١؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج٤، ص: ٢٨.

وكان الوقاد شديد الحرص على تجنب أي حريق قد يحدث بفعل خطأ أو نسيان منه لإحدى المصابيح موقدة ليلا خصوصا الشموع الموضوعة في الحسكات وغيرها. فقد تمتد النار منها إلى الحصر وما شابهها لتأتي على المحتويات الأخرى.

قامت مؤسسة الأوقاف بتعمير أنواع من المعالم مستفيدة من الحرفيين الذين أنجزوا الأعمال السابقة بشكل مباشر بعد تعيينهم من طرف نظار الأوقاف وبشكل غير مباشر باقتناء النظار لبعض ما يحتاجونه جاهزا من الأسواق التجارية والحرفية. وقد تنوعت أعمال الحرفيين وكثرت أنشطتهم بتنوع وتعدد وظائف كل معلمة وقفية. فظلت مستمرة في الزمان والمكان مادامت الموارد المالية تتدفق عليها من مصادرها، ومادام المسؤولون حريصون على استمرار أداء وظائفها. حيث كان أي خلل قد يضعف أنشطة المعلمة أو يوقفها. وبالتالي يؤثر على الحرف التي لا استمرار لأنشطة المعلمة بدونها.

المبحث الثالث

صناعة الآلات التوقيت

احتضنت بعض المعالم التابعة للأوقاف تصنيع أنواع من الآلات مثل الاسطرلابات والساعات الشمسية والرملية والمزاول ، التي مكنت من تحديد أوقات الصلاة والتعليم. وتبعا للتطور الذي عرفته صناعة هذه الآلات بالمعالم الوقفية بفاس في العصر المريني، توصل المؤقتون والمعدلون إلى صنع نوع مركب منها هو الساعات المائية التي تعمل بعضها بتكامل مع الأسطرلابات وقد تميز الأجانب في هذه الصناعة فحرص سلاطين الدولة على استمالتهم وجلبهم إلى فاس. وكانت معلمتا جامع القرويين والمدرسة البوعنانية مركزين هامين لتعديل وتركيب الساعات المائية هذه هي أهمها:

المطلب الأول

ساعة ابن الحباك (٦٨٥هـ/١٢٨٦م)

توصل المعدل أبو عبد الله بن الحباك إلى صنع أول ساعة مائية سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م. ولهذا المعدل خبرة في التوقيت إذ هو الذي أخذ طالع مدينة فاس الجديد عند تأسيسها سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م[١]. وتم وصف ساعته المائية التي صنعها وركبها بجامع القرويين بالبساطة في الصنع وطريقة العمل. إذ قال عنها ابن القاضي بأنها «بدنا من الفخار... وجعل (ابن الحباك) على وجه الماء طستا من نحاس من خطوط وثقب يخرج منه الماء بقدر معلوم إلى أن يصل إلى الخطوط، فيعلم بذلك أوقات الليل والنهار في أيام الغيم»[٢].

لذلك تمثلت بساطة صنع ساعة ابن الحباك في المواد التي تهيأت منها والأدوات التي تكونها. فقد كان الماء محركا أساسيا لها من إناء الفخار إلى إناء النحاس. وأما تقنيات عمل الساعة فبسيطة أيضا، حيث كان الماء يتسرب في إناء النحاس الموضوع فوق بدن الفخار المملوء بالماء، بقدر معلوم من الثقب الموجود في قعر الإناء الذي يرتفع منسوب الماء فيه مما يساعد المؤقت في تحديد الأوقات قياسا على الخطوط المعلمة داخل الإناء النحاسي. وبعد انتهاء امتلائه، يرد الماء إلى بدن الفخار فيكون قسما معلوما من اليوم قد انتهى ليتم عد أوقات القسم الموالي.

لقد وُضعت ساعة ابن الحباك بعد صنعها بالقبة العليا لجامع القرويين، تمكن

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٢٣٠.

(٢) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١، ص: ٥٤.

بفضلها المؤقت من تجاوز المبيت في تلك القبة[١] التي كان منها يحدد أوقات الليل باتباعه لحركات النجوم والكواكب من هناك، فضلا عن أوقات النهار التي كانت مواضع الشمس وما تخلفه أشعتها من ظل مساعدة في التوقيت. وبذلك أصبحت الأوقات تحدد وتعلن بتقنيات أدق خففت على المكلفين بالتوقيت مهامهم.

لكن بُعد المكان الذي وضعت فيه الساعة عن الصحن الذي يجلب منه الماء أدى إلى إهمالها بعد مدة من تشغيلها[٢].

وقد تطلبت صناعة هذه الساعة المعرفة بأوقات الليل والنهار، التي اكتسبها المؤقتون أمثال ابن الحباك بدراسة علم التوقيت وممارسته، وبشكل وحجم الإناءين، ووزن إناء النحاس، وضغطه على سطح الماء الذي يؤدي إلى تسرب مضبوط للماء داخله ومقدار ارتفاع الماء فيه بتناسب مع مرور الوقت.

(١) التازي، عبد الهادي: الساعات المائية، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص ص: ٥٥-٥٦.

(٢) نفسه؛ الحريري: تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني، ص: ٢٨٥.

المطلب الثاني

ساعة الصنهاجي-ابن العربي (٧١٧هـ/١٣١٨م-٧٤٧هـ/١٣٤٨م

صنع هذه الساعة أبو عبد الله محمد الصنهاجي سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٨م في عهد أبي سعيد عثمان (٧١٠هـ-٧٣١هـ)، وطورها أبو عبد الله بن محمد بن العربي سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٨م في عهد أبي الحسن في الوقت الذي كان فيه أبو عنان مشرفا على الأعمال بفاس نيابة عن أبيه الذي تواجد آنذاك بالجبهة الشرقية.

لقد تشكلت ساعة الصنهاجي من بدنين مصنوعين من الفخار يربطهما أنبوب نحاس مموه، ومن إناء نحاسي ومسطرة معلمة بأرقام الساعات والدقائق، ويضم هذه الأدوات هيكل مصنوع من خشب الأرز. وتم تركيب هذه الساعة بعد صنعها في ركن من أركان الغريفة المخصصة لجلوس المؤقتين الواقعة على مصعد صومعة القرويين[1] وقد رسمت على الجدران الذي يعلو الساعة أبراج وأرقام الساعات والدقائق[2].

وكان عمل ساعة الصنهاجي يحصل أيضا بجريان الماء من البدن الفخاري الأعلى إلى البدن الأسفل عبر الأنبوب بقدر معلوم، فيتسبب ذلك في صعود الإناء النحاسي الموضوع في البدن الأسفل مع ارتفاع منسوب المياه فيه. وكانت المدة التي يستغرقها الجريان والملئ اثنا عشر ساعة هي مدة ساعات نصف يوم نهارا أو ليلا. وتستمر الساعة في عملها بإعادة ملئ البدن الأعلى وابتداء تحديد الأوقات من جديد

(١) المبحث السابق، ص: ٦٢، وعرفت الغريفة أيضا بالقبة لعلها احتضنت أيضا ساعة ابن الحباك.

(٢) التازي: المرجع السابق، ص ص: ٥٧-٥٨؛ بنعبد الله: العلوم الكونية والتجريبية في المغرب، ص: ١٣٣.

وهكذا يستمر العمل[١].

ونتيجة ذلك ، مكنت ساعة الصنهاجي من ضبط أوقات النهار والليل أحسن من طريقة عمل ساعة ابن الحباك. إذ أن كمية الماء التي توضع في البدن الأعلى تتسرب منه إلى البدن الأسفل وتعادل مدة الانسكاب مدة الليل أو النهار. ويتم تحديد الأوقات خلال مدة جريان الماء بين البدنين بصعود المسطرة وتناسب ذلك مع الأبراج والعلامات الموجودة على الجدران.

لكن بعد مرور عقود من الزمن، أهمل المؤقتون العمل بهذه الساعة فتعطلت، مما جعل السلطان أبي الحسن المريني يعين مؤقتا جديدا هو أبو عبد الله محمد بن العربي الذي شغّل ساعة الصنهاجي بشكل أفضل مما كانت عليه، ثم استمر في تطوير تقنياتها إلى أن تمكن سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م بعد تولي أبي عنان الحكم في فاس من صناعة اسطرلاب يشتغل بتكامل مع هذه الساعة يحتوي على رسوم تدور كلما أكملت المسطرة طلعتها من الإناء[٢]. ولذلك فدورانه إعلانا عن التحول بين ساعات الليل والنهار.

إن الجديد الذي أضافه ابن العربي للتوقيت بفاس تمكنه من إعادة تشغيل ساعة لصنهاجي، وإدخال الاسطرلاب في تحديد الأوقات إلى جانب الساعة المائية.

---

(١) التازي: المرجع السابق، ص: ٥٩.

(٢) نفسه.

المطلب الثالث

ساعة التلمساني (٧٥٨هـ/١٣٥٧م)

عرفت فترة أبي عنان فارس (٧٤٩-٧٥٩هـ) بناء المدرسة المتوكلية التي تحولت هي الأخرى إلى مركز للتوقيت اعتبارا لأنشطتها العلمية والدينية. فقد كانت تلقى فيها الدروس وخطب الجمعة، إضافة إلى وجودها في القسم الغربي من عدوة القرويين على مرمى من مدينة فاس الجديد التي استفادت من الأوقات المعلنة من أعلى صومعة المدرسة البوعنانية.

والتوصل إلى صناعة هذه الساعة تم بأمر من أبي عنان للمؤقت أبي الحسن علي بن أحمد التلمساني المعروف بابن الفحام ،كي يقوم بإنشاء ساعة مائية بالمدرسة المذكورة[1]، فصنعها وتميزت بكبر الحجم والتركيب في تقنيات العمل، واحتلت واجهة من أعلى الجدران الموجود عن يسار الخارج من المدرسة إلى دار الوضوء وعن يمين الطالع بزقاق سوق القصر في اتجاه باب الشريعة.

كانت طاقة الماء أيضا محركة لساعة التلمساني. لكن تحرك الماء هذه المرة تم بطريقة آلية أو ميكانيكية دون تدخل من العنصر البشري، الذي أصبح دوره يقتصر على المراقبة وتتبع عمل الساعة ثم إعلان الأوقات. وتطلبت هذه الطريقة الآلية في العمل دخول الماء في قناة بأسفل الدار التي وضعت بها الساعة، والجريان عبر قناة في اتجاه الطابق العلوي الموجود فيه هيكل الساعة الخشبي. حيث يمتد هذا الهيكل أفقيا خلف الجدران الذي فتحت به طيقان ووضعت أسفلها طسوس نحاسية.

---

(١) التازي، عبد الهادي: التاريخ الدلوماسي، ج٧، ص: ١٧.

تتكون الواجهة الخارجية للساعة البوعنانية من اثني عشر طاقا تنتظم أسفلها ثلاثة عشر طستا ،وهذه الطستات عبارة عن صحون متوجهة إلى الأعلى، تستوي على خشب الأرز المنقوش. كما تمتد عوارض خشبية منقوشة أيضا فوق الطاقات مغروزة من طرف واحد في الجدران، حيث تنطلق منه إلى أن تصل فوق مستوى الصحون في الفراغ الذي يفصل جداري الزنقة.

أما عناصر الساعة الداخلية فتتكون أساسا من أنبوب مصنوع من رصاص ومغشى بمادة الخشب يتحرك فيه الماء ويتقدمه هلال يدل على حلول الأوقات.

وبما أن هذه الساعة تعطلت بعد مدة طويلة من عملها، اجتهد الباحثون في التعرف على تقنيات عملها ، اعتمادا على الآثار التي لازالت لحسن الحظ، قائمة بالمكان الذي وضعت فيه الساعة عند صنعها. ولذلك يمكن إجمال ما توصلوا إليه في أن الماء يدخل من إحدى قنوات الشبكة المائية للمدينة التي تمر بالمدرسة، ليلج القناة التي صنعت للساعة من مادة الرصاص المغشاة بالخشب، ويصعد بقوة الضغط من أسفل دار «المكانة» إلى أعلاها عبر الأنبوب بسرعة مضبوطة ومحددة، ثم يمر عبر الأنبوب أيضا خلف الجدران، وعند وصول مقدمة الماء إلى طاق ينفتح هذا الأخير فتسقط صنجة (في حجم حصى صغير) من الطاق على الطست إيذانا بحلول ساعة معينة ولماء مستمر في لجريان فكلما وصل إلى طاق موال إلا وحلت ساعة موالية، إلى أن تنفتح كل الطاقات الإثني عشر فيكون نصف يوم قد مر ليتم الشروع آليا في تحديد ساعات نصف اليوم الثاني[1].

---

(١) Vilches, José Miguel Puerta : Art nasride et mérinide, art de la méditerranée, renaissances en orient et en occident 1250-1490, P : 63؛ توري، عبد العزيز: البوعنانية بفاس، معلمة المغرب، م٦، ص:١٨١١.

و كان المقري قد أضاف عن تقنيات عمل الساعة أن طائرين كانا يقومان بفتح الطاق وإسقاط الصنجة على رأس كل ساعة، في حين يقوم طائر ثالث بنقرات على قدر رقم الساعة التي حلت بصوت يسمع. كما ذكر الجزنائي أن قطرات الماء كانت تسقط من الطاق على الطست على رأس كل ساعة[1].

ورغم ذلك لازالت طريقة عمل الساعة ومحاولات إعادة تشغيلها تواجه عدة معوقات تقنية من بينها كيفية الانتقال بين ساعات النهار وساعات الليل بطريقة آلية. إذ يحتمل أن يتدفق الماء في الأنبوب بشكل متسلسل وعند وصول الهلال إلى آخر طاق وإعلان آخر ساعة في نصف اليوم الأول، ثم يعود إلى أول طاق ليبتدئ من جديد في تحديد أوقات نصف اليوم الموالي. لذلك فالهلال هو الدال على الساعة والانتقال بين الليل والنهار.

ويطرح انفتاح الطاقات وإسقاط الصنجات تساؤلات أخرى، مع العلم أن مهام الطيور المشار إليها يرجح أن يكون دورها شكلي فقط. في حين يكون للصنجات دور في انفتاح الطاقات. ومن غير المستبعد أيضا أن يكون للعوارض التي تمتد في الأعلى دور في ذلك إذا ما ربطت خيوط أو ما شابهها أما رجوع الصنجات من الطستات إلى خلف الطاقات فالأمر الوارد هو حصوله عبر قنوات خفية. إذ الإشارة واضحة إلى هذه التقنية في ساعة مائية صنعت لاحقا بالقرويين. كما أن وزن الصنجات الخفيف وحجمها الصغير يدعم ذلك.

لقد تطلبت صناعة التلمساني للساعة العنانية جهدا علميا وتقنيا كبيرا. إذ كان صانعها على دراية بالتوقيت والتعديل، ومكنته خبرته في التوقيت وصنع الساعات المائية من استغلال طاقات المياه الجارية بالقدر المناسب، والاستفادة منها في تحديد

(١) التازي، عبد الهادي: الساعات المائية، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص ص: ٦٣-٦٤.

الأوقات وإعلانها بطريقة آلية ومضبوطة.

كما أعطى التلمساني بصنع هذه الساعة للتوقيت بعدا اجتماعيا تم فيه إشراك السكان والمارة في التعرف على الأوقات من خلال مشاهدتهم للطاق المفتوح المشير إلى ساعة معينة والهلال الموجود خلفه، وكان صنع هذه الساعة أيضا نزولا عند رغبة السلطان أبي عنان في إظهار عظمة الدولة المرينية وقوتها.

استمرت ساعة التلمساني في القيام بوظيفتها برعاية من المؤقتين منذ تأسيسها بعد منتصف القرن الثامن إلى غاية القرن ١١ أو ١٢ هـ/ ١٧ أو ١٨ م[1].

(١) نفسه، ص: ٦٥.

المطلب الرابع

ساعة اللجائي (٧٦٣هـ/١٣٦٢م)

قام المؤقت أبو زيد عبد الرحمن بن سليمان اللجائي بأمر من السلطان أبي سالم ابراهيم (٧٦٠-٧٦٢هـ) بصنع ساعة مائية وضعت بجامع القرويين. لكن السلطان اغتيل قبل فراغ المؤقت من صنع الساعة[١]. وقد أنشأها شبيهة في شكلها وتقنيات عملها بساعة التلمساني.

ووضع اللجائي الساعة بعد صنعها بغريفة المؤقتين. وهي عبارة عن حُجرة صغيرة تتكون من أربعة وعشرين طاقا ذات أبواب خشبية تنتظم أسفلها طاسات. وترتبط الطاقات والطاسات بقنوات تتدحرج منها الكرات. وتمتد فوق الطاقات قناة مائية يتحرك فيها الماء، وعارضة خشبية تمكن من دفع الكرات وإعلان حلول الساعات[٢].

وتتميز تقنيات عمل هذه الساعة بدورها بالتركيب والآلية. إذ يتسرب الماء بقدر معلوم في الأنبوب الممتد فوق الطاقات، في الوقت الذي تنحني عارضة خشبية بحبل فوق الطاقات أيضا بطريقة آلية دقيقة ومضبوطة زمنيا بحسب سرعة الماء الذي يمر في الأنبوب.وعند وصول العارضة إلى طاق معين ينفتح بابه، فتتحرك الكرة المصنوعة من حجر ناري، وتسقط على الطاس معلنة عن حلول ساعة معينة.

---

(١) نفسه، ص ص: ٦٧-٦٨.

(٢) الدباغ، عبد العزيز: من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م. ص: ١١٧؛ التازي: المرجع السابق، ص: ٦٩.

ويتبع عمل الساعة بشكل متسلسل[١]، إلى أن ينتهي توقيت يوم ليشرع في تحديد أوقات اليوم الموالي بعد رجوع العارضة الخشبية بطريقة آلية إلى نقطة البداية، كما أن الكرة النارية عند سقوطها على الطست ترجع خلف الطاق من جديد في قنوات خفية وضعت لذلك.

وترتبط حجرة الساعة باسطرلاب يدير شبكة صفيحة الماء، إذ تمر قناة من الحجرة إليه لعل الماء لذي يتسرب فيها يدير صفيحة الاسطرلاب[٢] عند الانتقال من يوم إلى يوم آخر.

وبذلك جمعت ساعة اللجائي بين تقنيات ساعة الصنهاجي من خلال ارتباط عملها بالاسطرلاب، وتقنيات ساعة التلمساني التي تكونت أساسا من الطاقات والطستات وإعلان الأوقات بدفع الكرات. وتمثلت إضافة اللجائي في صنع ساعة تتكون من ٢٤ طاقا تمكن من تحديد كل ساعات اليوم.

إن مد ساعة اللجائي بالماء بشكل مستمر ومتسلسل تطلب ربط أنبوبها بإحدى قنوات الماء التي تزود جامع القرويين. ومن المحتمل أن ذلك كلف المؤقت اللجائي مد قناة من صحن الجامع إلى الغريفة خاصة بتزويد ساعته بالماء. كما أن استمرار عمل الساعة وإعلان الأوقات بالاعتماد عليها تطلب من المؤقتين تتبع ومراقبة العمل والتردد على الغريفة عدة مرات في اليوم.

تلك هي أهم الساعات المائية التي صنعت في العصر المريني، والتي تدرجت تقنيات عملها من البساطة إلى التركيب، وقد مكن صنعها من التخلص التدريجي

---

(١) التازي: المرجع السابق الصفحة نفسها.

(٢) نفسه: ص: ٦٩.

من التدخل المباشر للمؤقتين في سير عملها. إذ أصبحت الساعة المائية عبارة عن آلة لا يقوم المؤقت المكلف بها إلا بالمراقبة وتتبع العمل. فأتاح ذلك تجنب الإهمال الذي كانت تتعرض له الساعات المائية التي صنعت في المراحل الأولى، كما حدث لساعتي ابن الحباك والصنهاجي، إذ كان تدخل المؤقت بإعادة الماء من إناء إلى آخر والتردد على الصحن عند الحاجة إلى كمية من الماء، تعد عوائق كانت مهددة لاستمرار العمل بالساعة المائية. كما أن غياب المؤقت بشكل أو بآخر أو تعويضه بمؤقت آخر، يطرح صعوبة أيضا في وجه سير عمل الساعة المائية التي تعمل بطرق غير آلية. وما يبرر هذا القول هو صمود ساعتي التلمساني واللجائي لمدة زمنية طويلة.

ورغم الفتور في صنع الساعات المائية في نهاية فترة بني مرين وفي عهد بني وطاس. يبدو أن هذه الفترة كانت شاهدة على صنع بعض النماذج، تعد الساعة المتواجدة ببرج القرويين أهمها. إذ لازالت إحدى الواجهات الداخلية للبرج، الموجود على زقاق الشماعين قريبا من جامع القرويين، تحتوي على ساعة مدفونة في الجدار تتكون من ثلاثة عشر طاقا[1]، شبيهة بساعة التلمساني، يُرَجح أن لا تختلف تقنيات عملها عن التقنيات التي ذكرت بصدد ساعتي التلمساني واللجائي.

لقد اختلفت انتماءات الصناع المؤقتين الذين أطروا أوراش صناعة الساعات المائية. فإلى جانب العنصر المحلي، كما هو الشأن عند ابن الحباك والصنهاجي، ساهم العنصر الأجنبي في التصنيع، وهو الأمر المتعلق بالتلمساني نسبة إلى مدينة تلمسان التي صنع بها ساعة مائية لأحد ملوك بني عبد الواد[2]، واللجائي نسبة إلى إحدى المدن الأندلسية وغيرهما. وقد كان ملوك الدولة المرينية حريصون على الاستعانة

(١) نفسه، ص: ٧٠.

(٢) نفسه، ص ص: ٦٢-٦٤.

بالخبرة الأجنبية في هذا المجال وغيره من المجالات مستغلين الاحتكاك بالجبهتين الشرقية والأندلسية.

المطلب الخامس

آلات التوقيت الأخرى

إن صناعة الساعات المائية التي ارتبط بعضها بالاسطرلاب لم يغن المؤقتين على الاعتماد على أدوات أخرى في التوقيت مثل الساعات الرملية والشمسية أو المزاول[1] وغيرها من الأدوات والآلات التي ساعدت المؤقتين في تحديد أوقات الصلوات حسب ما تشهده من تغيرات يومية، وبداية الشهور والفصول والمواسم وغيرها. وهي مهام تكلف بها المؤقتون.

وتعدد مراكز التوقيت بمدينة فاس، وما رافقه من اهتمام المدرسين والطلبة بعلم التوقيت، أدى إلى انتشار آلات التوقيت في عدة مساجد ومدارس مثل الساعات الشمسية التي تعرف برخامات التوقيت ومجموعة من الأدوات الأخرى مكنت الطلبة والمصلين وغيرهم من الاستعانة بها في التعرف على الأوقات. إلا أن هذا الانتشار صحبه احتفاظ مركز جامع القرويين بأهميته في إعلان أوقات الصلوات بذل المؤقتون جهودا في تحديدها بدقة، واحتكمت كل مساجد ومدارس المدينة إليها. لذلك أصبح العَلَم الذي يُرفع عند حلول وقت الصلاة في أعلى الصومعة نهارا والفنار الذي يضيء في نفس المكان ليلا، مساعدين في اقتداء مختلف مساجد المدينة

---

(١) المزاول: تجمع على مزولة وهي رخامة كانت توضع مسامتة للشمس مثل تلك التي وضعت بأعلى صومعة جامع القرويين . ورد كلام عن ذلك عند الدباغ: من أعلام الفكر والأدب، ص: ١١٧؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١، ص: ٢٣٧؛ نفسه: ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، نشر دار التراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس، رقم ٧ من سلسلة تراثنا الإسلامي، دون تاريخ ، ٢، ص: ٢٧٧.

بهما. وبحكم بعد المدينة البيضاء والقسم الغربي من المدينة العتيقة عن جامع القرويين، أصبحت صومعة المدرسة البوعنانية هي الأخرى تشهد رفع العلم وإضاءة الفنار في أعلاها بتنسيق مع ما يتم في القرويين واقتداء به، فمكن ذلك كل ساكنة المدينة من تجاوز التأخر أو الارتباك في إعلان حلول أوقات الصلوات. ومما قيل في العَلَم الذي كان يرفع في أعلى الصوامع النظم الآتي:

نور به عَلَـــم الإيمان مرتفـــــع للمهتديـن به للحق إرشـاد

يأتون من كل صوب نحوه فلهـم لديه للرشد إصدار وإيـــراد[1]

ويعبر ذلك عن استعانة الناس بالعلم المرفوع في التعرف على أوقات الصلوات في حالة عدم سماعهم للآذان أو بعدهم عن المسجد. والأمر نفسه انطبق على الفنار أو المصباح الذي يضيء ليلا أعلى الصومعة.

وقد كان العلم المرفوع ذو لون أزرق[2] إلا أن هذا اللون كان مقتصرا على يوم الجمعة في حين كان اللون الأبيض مميزا للعلم المرفوع في بقية الأيام. وذلك إبرازا لأهمية يوم الجمعة الذي يشهد إقامة الصلاة في المساجد الجامعة فقط ظهرا.

ولازالت عادة رفع العلم بأعلى الصومعة وإضاءة المصابيح هناك سارية المفعول لحدود الوقت الحالي.

---

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ٢، ص: ٥٠٨؛ نفسه، ج١، ص ص: ٥٤-٥٥؛ ابن لأحمر،إسماعيل: أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن المسمى نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان، تحقيق: محمد رضوان الداية، نشر مؤسسة الرسالة، مطابع دار الملاخ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص: ٤٥٤.

(٢) ابن القاضي: المصدر السابق، ٢، ص: ٥٠٨.

إذا كانت آلات التوقيت على اختلاف أنواعها لم تتطلب إلا مواد أولية متوفرة وبسيطة، أهمها المياه والخشب والرصاص ومواد صخرية ومعدنية، لم تكن تكلفتها المالية كبيرة، فإن هذه الآلات تطلبت عملا علميا وذهنيا وتقنيا من طرف صانعيها، الذين اكتسبوا معارف تلقوها من العلماء المتخصصين في التوقيت في عدة مراكز علمية ضمنها مراكز فاس، ومارسوا أعمال التوقيت بالمراكز الوقتية جعلتهم ذوي مهارات استغلوها في إنجاز أوراش لصنع آلات التوقيت السابقة الذكر بفاس بأمر من سلاطين الدولة وبإشراف من نظار المعالم الحبسية.

كانت تلكم أهم الأنشطة الصناعية الوقفية التي مكنت من تحقيق أغراض دينية وعلمية واجتماعية، تظافرت فيها جهود السلاطين وما خصصوه من أوقاف، وجهود أفراد المجتمع الذين خدموا المعالم الوقفية بما حبسوه من أموال لفائدتها، وخاصة الدينية منها، وبالتالي، فإن الدولة تمكنت من تقاسم الأدوار بإنشاء مؤسسة الأوقاف التي لبت بأعمالها أهداف السلطة وحاجيات المجتمع.